خالد الحديدى

أبيع ذاكرتى

قصص

صدرت الطبعة الأولى فى أغسطس 2019

بطاقة الكتاب

عنوان المؤلف	أبيع ذاكرتى
المؤلف	خالد الحديدى
التصنيف	قصص
رقم الإيداع	15543 - 2019
الترقيم الدولي	978-977-6726-19-9
رقم الإصدارالداخلى	459 الطبعة الاولى اغسطس 2019
عدد الصفحات	90 صفحة
تصميم الغلاف	مؤسسة النيل والفرات



اهداء

الى زوجتي شيماء

التي رممتني ،

التي تحملت شطحات الروائي وكوابيس الكاتب

مقدمة

أنا لا أبدل أحزان قلبي بأفراح الناس ، ولا أرضى أن تنقلب الدموع التي تستدرها الكآبة من جوارحي وتصبح ضحكا ، أتمنَّى أن تبقى حياتي دمعة وابتسامة.

(1)

أبيع ذكرياتي

اخترقت السوق دون أن أحس بالناس والحركة كان الثوب الأبيض مضجعا علي ذراعي كجثة خمدت فيها الروح منذ لحظات وكنت قد خلفت ورائي غرفة صغيرة تصفر فيه الريح،
و أمرأه قد أحمرت عيناها من الدموع ومعدة فارغة لم تستقبل طعاماً قط منذ يومين .
قيل لي منذ مده طويلة، شهرين أو أكثر :
أذهب الي سوق الاشياء القديمة ولم اكن لا أظن قط بأنني سآلف هذا السوق مع الزمن و أن زيارتي له ستتكرر بهذا القدر . كنت أحسب، ان أزمة صغيرة قد حلت بي وان الأيام القادمة، ستظهر لي وجهها الربيعي الفاتن فتورق الأغصان الجافة وتزهر،
وتشبع المعدتان اللتان يمضغان في الليل أسى وفي كثير من الأحيان وعداً غامضاً لا أدري من أين ورثته، بأن الفرج قريب، ولكن الأيام لم تضحك لي قط، فلم تورق الأغصان وظلت قدما الشتاء عالقين بأرض غرفتي، بقلبي وقلب زوجتي وظللت أمد يدي، بين حين وآخر، الى أشيائنا العزيزة علينا، احملها كمن يحمل جثث أصدقاء له ماتوا وأذهب بها الى هذا السوق الذي يلتهم كل شئ، لا يرد ميتاً على الأطلاق،
وإنما يدفع فيه ثمنا بخساً، قد يشبع المعدة الفارغة الي حين.
ولم انتبه الي ما في السوق من حركة مألوفة فيه، فقد كان الثوب الذي أحمل .. أعز الأشياء الي قلب زوجتي التي تعيش في قسمات وجهها مأسي تتضخم شيئاً فشيئاً، ثم تخرج ثورة من الدموع، لقد ذهلت اذ رأتني اتناول ثوب زفافها الابيض وراحت تتابع يدي وأنا

أطويه، في فزع مقبض وخيل ألي أن ذكريات زواجنا الممتعة قد وثبت فجأة الي عينيها، كما وثبت الى عيني وأنها تخاف أن تمحى هكذا الي الابد صِلاتها بالماضي السعيد وأن تضيع في زحمة الذكريات البائسة التي باتت تطاردنا .
لقد عاصر هذا الثوب أيام متعتنا وقت كنت أعمل وظل عزاءنا زمنا طويلا ، سنه، سنتين، فهل سيختفي هو أيضا
كالأشياء الاخرى ويضيع كما يضيع صوت حنجرة كفت عن الغناء فجأه؟
وراحت تبكي : أرسلت دموعاً عزيرة دون أن تقول شيئاً، فقد أعتادت أن تسكت كلما سلبت حاجة من حاجاتها ولم اتفوه، أنا بدوري بكلمة عزاء واحدة ، سكت، ورحت أرمق القسمات المكفهرة من الحسرة، ثم نزلت متخاذلاً ..
أحمل علي زراعي الجثة البيضاء وفي صدري رغبة مكبوتة بأن أصيح في وجه هذه القوة المجهولة التي تمنع عنا اللقمة والزاد وتحاربنا في أعز ما نملك في ذكرياتنا الحلوة، نُميتها، ونغيبها في أعماق النسيان.
كانت الملابس المدلاة أمام المحال في السوق تصطدم بوجهي وتحمل الي انفي رائحة النفتلين ولست أدري لماذا شعرت وقتئذ بشيء من الخوف و التردد، لقد خيل ألي أنني أتجول في مقبرة وأن كل هذه الأشياء والملابس المعروضة أمام عيني .. تخص أناساً من لحم ودم، مثلي ومثل زوجتي استعملوها ولبسوها مدداً مختلفة من الزمن، حتي أصبحت عزيزة عليهم، قطعة من حياتهم وذكرياتهم، ثم انتزعت منهم لسبب من الأسباب وبيعت في هذا السوق الذي يبتلع الذكريات، وصار أصحابها القدامى أمواتاً في نظر أصحابها الجدد وحدثت نفسي بأن أعود أرد الي المسكينة التي تبكي ثوب زفافها الأبيض واجلس ماداً يدي نحو السماء .

كان السوق مزدحما وكان الجو ثقيل الوطأة كئيبا وعلى الوجوه حزن مشترك غامض، شارك في تضخيمه ألواح صدئه وضعت في سقف السوق جعلته مظلماً تضيئه في غير انتظام حزم ضوء هاربة من الشمس تشق لنفسها في العتمة دروباً ملأى بذرات الغبار، علي ان الناس لم يعبأوا كالعادة، بكل هذا وانما كانوا ينقلون اقدامهم بين المحال المتخومة حتي منافذها بالأشياء والملابس القديمة، او بين بعض النساء وقد جلسن علي الأرض ووضعن أمامهن أكواما من القمصان

والاثواب، يبعن ويشترين

واحياناً يتسلين بالخناق مع بعضهن علي زبون يتيم، يزور السوق في يوم كساد.

وفتحت عيون السماسرة التي تشبه عيون البوم احداقها، وراحت تلاحق الثوب الممدد على ذراعي، تعاينه في حذق،

وحاول سمسار متحذلق ان يستدرجني الي دكان عميل له، فصددته وتابعت سيري الى اعماق السوق حيث تغوص الأشياء العزيزة في أحشاء حوانيت كثيرة كأفواه التماسيح .

ووقفت امام احد المحال التي اعتدت ان امولها بالأشياء التي أبيعها وقدمت لصاحبه ابو محمد الثوب الابيض وسألته هل جاءت المرأة حسب الموعد يا أبو محمد كنت وقتئذ، اعاني من حسرة صغيرة شبيهه بتأنيب الضمير، فرشت ظللاً مقيتا علي الموقف كله وجعلتني انتفض أمام البائع، فلقد خيل الي انني أبيع ذكريات سعيدة ..

مقابل حفنه من الجنيهات، سأشتري بها أياما آخري من أيام الشبع التي باتت عزيزة المنال ومع ان وجهي قد اكتسى بذل تلك اللحظات الا أن الرجل لم يبد عليه انه لاحظ شيئا، كان يعاين الثوب بعيني صقر مدرب، ويهمهم كلما اكتشف فيه ميزة جديدة

وقال لي منحيا اعجابه :

لن تأتي قبل بضع دقائق أخري، استرح وقرب فمه من وجهي ، وقال بلهجة تاجر خبير :
هل تعرف؟ الثوب جميل وجديد، وحرام ان يباع وهززت رأسي في أسي ولم أجبه وحين لمس في هذا الزهد بالكلام، قال بلا مقدمات سأخذ خمسة بالمئة كالعادة .
من وقت ليس بالقصير قبل أن تأتي هذه المرأة التي حدثني عنها ابو محمد لقد كانت تريد أن توفر لابنتها عرساً كبيراً تحسدها عليه البنات وكانت امنيتها الكبرى أن تري ابنتها في ثوب العرس الابيض الطويل الا ان ضآلة المهر وضيق ذات اليد لم يمكنها من شراء الثوب المطلوب الغالي الثمن، فأرتأت ان تشتري ثوبا مستعملاً من سوق الملابس المستعملة ولجأت الي ابو محمد ليتصيد لها واحداً رخيصاً وجيداً .
و عندما رأيت المرأة مسح حزني احساس مرضي بأنني سأتحرر مادامت قد جاءت من وطأه هذا الموقف المعقد الذي يثيره في اضجاع الثوب هكذا علي ارض الدكان منتظراً ان يباع كأية سلعة اخرى وهو الذي يحمل آلاف الذكريات الصغيرة الجميلة ، وأنني سأحمل الي البيت مالا وشبعاً مؤقتاً وشيئاً من الأسى المر،
تتبادله عيناي وعين زوجتي فتره، ثم تنساه العيون الاربع، وتمضي الي الاهتمام بشقائها اليومي المألوف .
راحت المرأة تحسس الثوب في إعجاب واضح كانت اساريرها تتهلل بشراً حقيقيا ولقد خيل إلي انها علي اشد ما تكون الأن، شوقاً الي رؤية أبنتها عروساً تزف بالثوب الأبيض الطويل كما كانت تتمني دائماً .. حين قالت :
كأنه فصل من أجل مريم .
وملأ وجهها بشر جديد ولست ادري لماذا انتقلت إلي عدوى الفرح فجأه انا السابح في بحيرة حزن قاتمه، فاذا بي اشاركها حبورها هذا

كأنني لا أحمل علي كتفي مأساة المرأة التي احبها والتي خلفتها في البيت تبكي الثوب نفسه .
وقالت المرأة :
- كم الثمن يا أبو محمد؟ انت تعرف حالي قل كلمة واحدة ونظر ابو محمد إلي وقال :
مائه وخمسون جنيها، يا بلاش
قالت المرأة وقد غشيتها، بسرعه مسحه أسفة ظاهرة
غالي هكذا يا أبو محمد، الله وحده يعلم كيف دبرت المبلغ ..
وحين هممت بالتدخل، نظر إلي ابو محمد نظرة ذكرني فيها بجهلي .. بقواعد البيع والشراء، وقال : الثوب جيد كما ترين ..
والمبلغ صغير ولولا حاجه الأخ لما باعه بهذا الثمن
وقالت :
هذا ما يجعلني اتحمس لشرائه . البنت يتيمه الاب ما لها أحد غير الله وغيري .
وقد ألمني يا ابو محمد أن يتم فرحها دون ان تقتني ثوب لزفافها وتظهر به أمام الناس مثل كل خلق الله من البنات اللواتي يتزوجن ولكن .. يظهر انه ليس لها نصيب.
كانت المرأة تتكلم برنة أخلاص
ولقد تهيأت لدي قناعة كبيرة بأنها لم تكن تكذب وان مأساة من نوع آخر ستعيش في قسمات تلك الفتاة المقبلة علي الحياة. ان لم تقتني ثوبا للزفاف فاتتبختر به أمام المدعوات .. وهن يغنين لها فرحات.
وقدرت أي حزن بالغ ، يعتصر أفئدة الجميع وقتئذ واي عرس مثقل بالأسى سيكون ..
وسألها ابو محمد :
النهاية؟ كم تدفعين في هذا الثوب الجديد؟
قالت : مائه جنيها وليس لدي غيرها

فقال ابو محمد : ما تزال بعيده جداً يا ست ..
وبدأ وجه المرأة في تلك اللحظة، كاسفا مليئاً بالخيبة وكانت عيناها تحدقان في الثوب في لوعه، كأنها تستنكر منذ الان، ان يكون علي جسد غير جسد ابنتها العروس التي ستزف بعد يومين ولم تدر ما تقول قد بدت عاجزة عن أن تخرج كلمة أخرى، ستمضي الان الي البيت وسيظل الثوب ملقي كجثة وستزف الفتاة بلا ثوب زفاف ابيض طويل ولن تطوف بها المدعوات ولمحت بريقا في عينها وخيل لي إنها تبكي .
وخلفتنا فجأة في صمت مفجع، ومشت ولسبب غامض، لا أدركه الآن، بدوت حريصا علي ان يكون الثوب لهذه الفتاة القابعة الان في المنزل تنتظر ذراعي امها وهي تحملان لها الثوب الابيض شعار حياتها الجديدة الحلوة .
لم اكن تحت تأثير شفقة عابرة فقط وانما كنت عرضه، طوال ثوان لهجوم شعور حزين غير محدود، خيم علي صدري
وراح يجعلني اتصور كيف تكون حال الأم العائدة الان الي البيت بذراعين فارغتين وحال الفتاة التي تريد ان تبدأ حياتها الجديدة بلا عقبات. وصرخت بالمرأة : تعالي ..
ودفعت الثوب في وجهها دون ان اقول كلمة واحدة كانت عيناها مليئتين بالدموع وجاء أشراق وجهها المفاجئ فأصبح المشهد جميلا، أخاذاً اشبه ما يكون بصحو أطل بعد ليلة ممطرة .
وفي حين كان الثوب يرقص علي ذراعي المرأة كنت أنا في طريقي الي البيت، احمل للمرأة الباكية التي تنتظرني مالاً وشبعا وشيئا من الاسى المر وحكاية جديدة عن ثوب زفاف ابيض ذهب ليعيش عهدا جديد او لينسج لاثنين شابين متحابين فتى وفتاة ذكريات اخرى جديدة ومفرحة

(2)

قبور فوق الأرض

خرج من البيت لا يُلوي على شيئ وَاتجه بِخُطى سَرِيعَة يقطع الزقاق، ليبلغ الشارع حيث يجد في آخره الصيدليَة الكبيرةَ الواسعة. كُل ما كان يُريده ويُفكر فيه ان يصل إِلى الصيدلية بسرعة، لكي يَبتاع الأَدويةَ التي أُوصي بِها الطبِيب قبل ان يغادر منزله. لقد سمع الطبِيب يَقُول لهُ ولأبيه وحدهما " ان الأمر في شِفائها ضَعِيف بَعض الشيء، أَلا آننا سنبذل كل ما في وسعنا ولم يزِد على ذلك بل وعد بالعودة في اليوم الثاني.

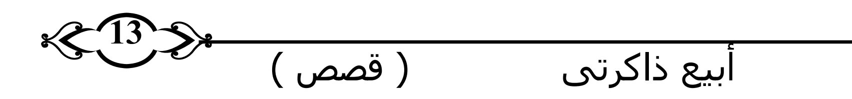
لِذلك كانَ أَمله كله مُتعلقاً بِهذِهِ الوصفة الطِبية التي كانَ يُمَسكَ بِها وهُو يُهَرول في سيره .

وحين بلغ أول الشارِع تطلع إِلى آخرهُ، فرأى أَنوار المتاجِر مضاءة كلها لم يُطفِئ واحد منها، فشعر بقليل من الاطمِئنان إِذ عرف أَن الصيدلية لم تُغلق بعد وانهُ لن يضطر إِلى اضاعة الوقتَ في البحث عن صيدليَة أُخرى ومن يدرِي قد تكون بعيده في هذِهِ المَدِينَة المُترامِية الأرجاء.

غير ان شيئاً من الخوف كانِ يساوِره حول ثمن الدواء، فقد كان في الوصفة أَسماء كثيره من الأدوية ومع أنه كان في أَوائل الشهر، أَي انه كان يعرف أَن ليس للراتب بركة كما يقُول الناس فِي مدِينته وها قد سلخ منه الطبيب بزيارتهُ قسماً وعسى ألا يحتاج إِلى أَطِباء آخرين يأتون على البقيةَ الباقَية من راتِبه.

قال فِي نفسه " أَرجو أَلا يكون الدواء غالِياً " ولكنه كانَ يعرف أَن هذه أَمنية بعيدة المنال،
فالأدوية غالية الثمن وهو يعرف ذلك حق المعرفة.
ولج باب الصيدلية فَبهرتهُ أَضواء النيون ومعروضات الواجِهات الزجاجِية وليس يدري لماذا شعر كأَنه يدخل ملهى ليلي، عند ذلكَ فقط تَذكر هذهِ الجُملة الوحيدة التي نطقت بِها أمه " لا حاجه للدواء، أُريد قبراً واسعا " لقد تذكر أُلان هذه الجملة التي قالتها له أمه ولَكنه لم يلتفت إِليها آنذاك وما وعى لها معنى، ثُم ها هي تُبرز فجأةً في ذهنه وتلح عليه إِلحاحاً شديداً " لا حاجة للدواء، أريد قبراً واسعا " حقا لقِد قالت له أمه ذلك وهي شبه غافية في فراشها الصغير الذي وضع على المقعد الخشبي الوحيد في البيت فشكل شيئا ما يُشبه السرِير. وأثناء جزء مَن شروده هذا اندفاع الناس بِين داخل وخارج في بهو الصيدلِية الواسع ورأى نفسهُ يتقدم نحو الصيدلي القصير الذي كان يرتدي بالطو ابيض، فترتطِم رجله بِالميزان الرابض في الطرف الأيمن من الصيدلِية ، تفحص بِمهارة وَسرعة مدهِشتين وعجب في نفسهُ من سرعة هذا الصيدلي وخشي أَن يُخطئ وهو في غمرة سرعته تلك فيبدل دواء بِدواء .
رصف الصيدلي الأَدوية على اللوح أمامه وراحَ يحسب ثمنها وأُضاف بِسرعه وهو يضع الأدوية في صره أَمامه :
خمسمائة جنيه وخمسه عشر جنيها .
فأطرف قليلاً ، لكم ود لو يفاصل الصيدلِي ويساومهُ على عادته كلّما دخل متجراً ولكنه تمالك نفسه وصرف هذا الخاطر عَن ذهنه بقوة ولم يلبث أن رفع نظره الضعيف إِلى الصيدلي وأَستجمع شجاعته ثم قال : -أَلا يمكِن الاْستغناء عن بعض هذه الأدوية؟

لا يدرِي كيف جاء هذا الخاطر، أَلا أَنه أُعجب بهذه الفكرة التي طرأَت على بالهُ فإِذا لم يكن هُناك مجال لخفض سعر هذه الأَدوية فلِيختصر منها على الأَقل.
نظر إليه الصيدلي طويلا وهز رأسه عدة مرات ثم قال وهو ينقر على البلاطة البيضاء أمامه : يُمكِن الاِستغناء عَنها جَمِيعاً
كانَ يَعرف أن من عادة الصيادلة لا يطِيلوا الحديث مع زَبائِنهُم ولم يدر لِماذَا أبدى الصيدلي رِحابة الصدر هذه، اتراه أشفق عليه،
فسألهُ : كيف الاْستِغناء عَنها؟
عند ذلك نظر إليه الصيدلي نظرة جامدة كنظرة حامل الموت وفتح الصُرة ببطئ ثُم سحبها ووضعها أَمام عينيه فكادت تمس أَنفهُ وقال له : - مُورفِين.
فهز رأْسه وَلم ينطق بحرف.
فأعاد الصيدلي كلمته بشيء من النزق :
- مُورفِين
كان في صوته ما يشبه الصراخ وكأنه يرِيد أن يقول له "أَلا تفهم " ولكن عينيه ظلتا معلقتين به كأنهما مسمرتان ، فأدرك أَنه لم يفهم معنى كلمته فعلاً .
من المريضة؟
- أُمي
- وقال تقيأت؟
فسارع إِلى الجواب كأنه وجد في سؤال الصيدلي بشيراً بِالبراء :
-نعم، نعم، صباح هذا اليوم .
عِند ذاك ضرب الصيدلي كفا بِكف وتمتم :
- أَن انتشار هذا المرض ليدعو إِلى الخوف والفزع.
ما أعظم هذا الصيدلي الطبيب، فهو يكاد يساوي الطبيب في فهمه.
- وهل عرفت مرضها؟ .



لم يجبه بِكلمة بل أَعاد الإِبرة إلى الصُرة وربطها بِتؤدة وقال كمن يخاطب نفسه : .
- إِبرة كل يومين، ثم إبرة كل يوم، ثم ابرتان في اليوم الواحد وهكذا.
وَلكن الطبيب قال لنا هذا الدواء سيخفف عنها أَلمها.
هذا صحيح ولكن المورفِين ليس دواء.
نعم، لا شك، ان في العُلب الأخرى فيما أَظن الدواء.
مقَويات، مجرد مقويات.
أَطباء هذا الزمان يخدرون الجسم فيضعِفونه ويعطونه في الوقت نفسه المقويات وهم يعلمون حق العلم أَن ما من دواء لهذا المرض.
وسأَله بلهفه :
وما هذا المرض؟
أَنني لا أُفهم ؟
قال الصيدلي بلهجة ملؤها البساطة :
السرطان .
فغر فمه دهشة ولم يعد يدري ماذا يقول ، وجد نفسه يدفع إلي الصيدلي المبلغ المطلوب ويحمل صره الأَدوية ويمضي .
وحين كاد يبلغ باب الصيدلية ألتفت فجأه نحو الصيدلي وقال له :
شُكراً .
وأُشار إِليه الصيدلي أَن يقتَرب فأَقتَرِب مِنه محازرا فهز الصيدلي رأسه وهو يحدق بعينه، قال له بصوت فيه شيء من المودة والحنو تشجع يافتى فأَنت رجل .
لم يجبه بكلمة بل أنطلق صامِتا .
كانت الصيدلية خالية من الناس وراح أَحد العاملين بالصيدلية يغلق الأبواب الجانبية وحين انتهى إِلى الشارع وجد نفسه يخفف من

سرعته ويسير ببطئ، غير آبه لهذا الدواء الذي أَنطلق مسرعا بشرائه مقدرا أن أمه ستجد البرء فيه بعد ساعات قليلة .
وعاوده صوت أمه وهو يسير مستأنيا في ليل الشارِع الطويل، ألعلها كانت تدرك بِحدسها أَن مرضها هذا لا شفاء منه، فتمنت أَمنيتها الأَخيرة .
وراح يفكر بمعنى كلمتِها، فلم يفهم لها معنى. فِيما أَرادت قبراً واسِعا وما فائدتها ؟ أَلم يكن أَجدر لها أَن تطلب أَمنية آخرِى .
أي أَمنية؟ لا شَك أَن الألم كان يضايقها فلم تكن تَعي ما تقول . ولكن سرعان ما عاد صوتتها إلى أَذنهُ قويا حادا كأنه صرخه أَلم تنبعث من فم طفل صغير " أُريد قبراً واسعا " وَتذكر آنها كررتها مرتين وكأنما كانت تخاطبه وحده بكلماتها تلك مع أن آباه وإخوته كانو حولها .
وفجأه ألتمع في ذهنه معنى كلماتها حدث ذلك على نحو سريع جدا حتى لعجز الإِنسان أَن يقدر عظيم سرعته، كوميض برق، أَو رفه جفن خاطفة أَو مذنب يهوي سرِيعاً من إِحدى النجوم فتلْتقطه نجمة أُخرى.
آه صحيح وهز رأْسه، صحيح جداً ، كيف غابت عن ذهنه كل تلك الصور والذكريات التي طالَا رددتها أمه على مسمعه منذ طفولته إلى اليوم .
نقل صره الأَدوية من يد إلي الأُخرى وعاد بذهنه إلي البيت وأمه .
فأحس بكثير من الشفقة نحو أُمه وشعر بالوقت نفسه بالعجز، العجز المطبق، فهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً وان مرتبه بالإِضافة إلى القلِيل الذي يكسبه أَبوه لا يكاد يقوم بِأود الأسرة، في الليل خاصه حين يصطدم النِيام بعضهم بِبعض وهم ممدون على فراشهم المبسوط على الأرض، الوالدان والإخوة والأَخوة والأَخوات يحشِرون فراشهم الواحد إلى جانِب الآخر فِي هذه الغرفة المستطيلة ذات النوافذ الأربع . لقد قالت له أمه عشرات المرات،

" ليتنا نستطيع أَن نستأجر أَحدى الغرف المجاورة أذن لاستطعنا أَن نتوسع قليلاً "
كانت تَكَررَ هٰذِهِ الأُمنِية في أَغلب الأيام ، ولاسيما حين تشعر بأَلم في ظهرها من جراء طي الفراش وحملها تلو الأخرى.
لِوضعها خلف الحاجز الخشبي نهاراً .
وساوره كثير من الدهشة إِذ أَدرك أَنه يعرف كل هذه الأمور ، ومنذ زمن بعيد لطالما كررت أَمه علي سمعه وسمع أُخوته المقولة المعروفة " الضيق بشع والبحبوحة جيدة ولو كانت في قبر " وكانت تردد
" ليتنا نستطيع أَن نستأجر غرفة آخرى، غرفة واحدة آخرى كي ينام ويدرس الأولاد فيها ونخصص هذه لي وزوجي ولِلطعام وَالضيوف .
قال في نفسه " يلغبائي "
أَنني متبلد الفكر هذا المساء وأتأَكد أنذاك آنها قالت كلماتها تلك وهي تعي ما تقول وأنه لم يكن مخطئاً فيما سمع.
اِنتهى إِلى مدخل الحي الضيق الطويل الذي تقع الدار في نهايته .
كانت قَدماه ثقيلتي الوطأة كأنهما لا ترِيدان الوصول إلى الدار .
وتساءل في نفسه " ترى هل تشفى أُمه من مرضها وهل يستطيع أن يستأجر غرفه آخرى ذات يوم كي تجد الأَسرة شيئاً من البحبوحة ؟ "
ألا أنه صرف هذه الفكرة عن ذهنه. لم يكن يشغله ألان أَلا شيء واحد، هو القبر الواسع .
ترى هل قدرت أمه أن سعر متر الأرض غالي جداً والمقبرة غاليه جداً؟
أَنى له أن يشتري مقبرة؟
وأفتر فمه عن ابتسامة بريئة .

هذا منتهى المحال ..إذا ماتت .. وٱقشعر جسمه لهذه الفكرة ، وصرخ بملىء صوته " لا سمح الله " ولكنه عاد يقول في نفسه هامسا إذا ماتت ستدفن في القبر الذي دفن فيه جده وجدته منذ عشرات الأعوام ومن يدري فإن صح ما زعم أَبوه فقد دفن فيه أَسلاف الأَسرة جمِيعاً . وتخيل العظام القديمة في قبر الأسرة ، تلملِم نفسها قليلاً كي توسع مكانا لزائر جديد، تماما كما فعل هو وإخوته يوم وضعت أمه آخته الصغيرة لبضع سنوات خلت.

ضغط علي الصرة بِكل قوته حتى تعبت رؤوس أصابعه، أُعجب بهذا الدواء الذي يحمله،

ما أجهل الصيدلي، مُورفِين ، نعم أنه يحمل إلي أمه المُورفِين وفيه الخدر، الخدر اللذيذ، لسوف تتخيل نفسها سعيدة، سعيدة جداً، في منزل واسع في منتهى الجمال

والفخامة كل شئ جميلاً ، جمِيلاً ، سيموت ويتلاشى الفقر والجوع والضيق وسترى آنها أُصبحت غنية تعيش في بحبوحه واسعة .

حين دخل المنزل، كان أَبوه قد أُحضر الممرضة التي تقطن غَير بعيد عن المنزل لتعطي أُمه الإبرة وكان كل شيء جاهز في ٱنتظار الدواء سارعت الممرضة إلى ملئ الحقنه وألتفتت إلى أُمه وغرزت الإبرة في جسمها الجاف وأُخرجتها برشاقة تدعو إِلى الإِعجاب وقالت لها الجملة التي ٱعتادت أَن تكررها لكل مريض :

بِالشِفاء.

(3)

الصياد والبحر

موجة أثر موجة تلامس الشاطئ بنعومة قد تشتد احيانا
حتي تكاد تشبه الصفعة القوية
يرتجف لها قلب الأنسان .
تلك هي حياة البحر، موجة تدفع موجة ... وصفاء لا يعكره إلا الزبد الذي ترسله الصفعة القوية والموجة الهائجة المشحونة بغضب البحر والتي تحمل الي قلوب ونفوس الناظرين إليها والي قلوب الذين يعيشون قرب الشاطئ ..
البحر مسائهم وصبحهم .. وغذاؤهم وأملهم عندما تغلق منافذ الأمل في حياة البؤس التي يعيشونها .
وهذا المركب السائر عبر الموج، يقوده عبد الستار .. تدفعه الموجه هازئة فيتمايل معها .. ينحني لجبروتها في تواضع جم لا يعرف التحدي .
فإذا ثارت الموجة وحاولت أن تتطاول علي مركب عبد الستار .. وان تزيد في كبريائها وجموحها ، ارتفع من قلب القارب ساعدان مفتولان ..صلبان كالحديد .. ولينان في ساعات اللين، ففي عروقهما الحنان والتصميم معا .. تمتدان معا في وجه الموجه المتطاولة المتعجرفة .. كما تمتدان للعناق !.. ويبدأ التحدي بين البحر وساعدي عبد الستار الذي يشق الموج ..
جيوش الموج بمجدافيه، مؤمنا كل الايمان أن أحدا لابكته، ينشرها علي سطح البحر كرشة عطر، يمسك أطرافها بساعديه متحفظا ... قدماه مثبتتان في ارض القارب في توازن وحذر ..

لا تؤثر فيه الأمواج ولا الرياح وعيناه في البحر .. في الزبد .. وروحه تسير مع الأمل علي سير حبال الشبكة .. حتي النهاية حيث تتجمع الاسماك ..
أو يتمني أن تتجمع، لانها يجب أن تكون ملأي بالاسماك والا فأن الجوع سوف يفتك به هذا المساء .. وربما طرده المعلم عباس صاحب القارب وهو لا يملك شيئا .. إلا القلب والجسد الاسمر القوي .. أنه عاجز حتى عن شراء شبكة لحبيبته، ولو قسطوا له ثمنها علي عشرةُ أَقساط!
وينتفض السمك في الشبكه وتسري الانتفاضة علي سير الحبال الي روحه، الي الأمل الذي يعيشه في الخيال .. الي قلبه وساعديه .. وترد الساعدان الانتفاضة وتحملان الشبكة الي القارب وفي داخلها الاسماك تتراقص . وتهرب من صدر عبد الستار زفرة ارتياح وتنتهي معركة اليوم .. ويعود القارب الي صخور الشاطئ ويحمل الصياد الاسمر شبكته وصيده الي المعلم عباس صاحب القارب وعشرات القوارب .. ويقف عند باب دكانه ينتظر أن يصرخ المعلم عباس بوجهه كعادته كم اصطت؟
ولاكن المعلم عباس لم يصرخ في وجهه، ربما كان يتلهى بمغازلة شاربه الطويل وهو يدخن الشيشة التي لا يفارق مشربها فمه طوال النهار ومعظم الليل!
وحاول عبد الستار أن يسعل، أن يحدث حركه لتنبيه المعلم عباس بوجوده .. ولكنه لم يفعل، خاف أن يفسرها المعلم عباس تفسيرا سيئا ، وتحرك المعلم عباس في هدوء وعيناه علي الشبكه اولا ... وعلي كيسها ثانيا .. واخيرا علي وجه عبد الستار ، الأمواج اليوم قوية .. كم اصطدت ياعبد الستار؟
اربع سمكات كبيرة وتسع سمكات صغيرة!!
الحقيقة انك صياد كسول .. حرام الخبز يدخل بطنك ..

فقط اربع سمكات؟
الريح قوية و الأمواج هائجة جدا.. والله يا معلم عباس ..
ووقف المعلم عباس .. صارخا بوجه عبد الستار ... امواج .. ورياح .. وكذب .. ونفاق ..
مطرود .. مطرود .. اخرج .. اخرج . واستفاق عبد الستار علي صوت المأساة مطرود .. مطرود ..اخرج .. اخرج ..مطرود .. فمن أين يأكل وليس معه اي شئ؟
وترقرقت عيناه بالدموع وهو يتوسل المعلم عباس أن لا يطرده، أن يجربه ليوم اخر ، وقال إنه سيشتغل الليل والنهار
وسعل المعلم عباس وهو يقف علي باب الدكان وخلفه عبد الستار ..
ثم قال له عبد الستار! وانتفض عبد الستار .. ترتجف جسده للنداء
نعم يا معلم اليوم صيدك قليل .. يوم السبت لازم تصطاد الضعف ..
ورمى إليه أجرته دون أن يستمع لجوابه .. لأنه يعرف تماما أن عبد الستار لن يعترض لكلا يموت جوعا.
وخرج عبد الستار ويده تعبث بالنقود وبالثمن البخس وابتعد عن دكان عباس وبدأت آلامه تخف وبدأ تفكيره يتجه اتجاها آخر .. شأنه شأن كل المعذبين من أبناء شعبنا ، الذين يرمون بالصور المؤلمة بعيدا عنهم في ساعات فراغهم ..
كان يفكر في (امال) الوحيدة التي تمسح في مساء كل يوم شيئا من الأمه وعذابه وصراخ عباس وعجرفته وغضبه ..
إن الموجة العابرة من الحب البريء التي يتلقاها من شفتيها في ابتسامه خجلى، تبدد ولو الي حين كل الصور البشعه عن هذه الحياة؟
ولكن ما بال امال تقف في طريقه كتمثال الشمع، لا تبتسم ولا تقترب ولا تلوح له بعينيها من بعيد كعادتها؟

ما هذا الجمود الطارئ في شفتيها وماهذه الرطوبة في العنيين اهي تبكي؟ ام هو مشروع بكاء؟ إثمة أمر يزعجها ، هل أساء إليها ؟ أن شيئا من هذا لم يحدث فهو يحتاطها بحنان الحب الذي يغار . . بل ويغار عليها من نفسه وعينيه هو.
ويلتقي بأمال في زاويه الطريق بعد أن حرك جمودها بهتافه (تعالي.. تعالي) وتحرك تمثال الشمع الي الزاوية كالحمل الوديع يسير في حب واستسلام .
وامسك بيدها يتحرى فيهم الحياه ليتأكد أنها مازالت حيه وان جمودها طارئ وللحظات .
ويسألها عن سبب وجومها، عن الابتسامة المثبتة النائمة علي شفتيها هذا المساء !
تحركت شفتاها .. وحاولت أن تتكلم ولكنها انهارت سريعا، لم تفارق الكلمات ثغرها لم تخرج وتتدحرج لان حشرجة الدمع أوقفتها .. وبدأ حديث الدمع ومسح عبد الستار دموعها .. كان يتلقاها دمعة ، دمعة والدموع لا تتوقف عن المسيل ، وأحس أن الأمواج التي يتحداها كل يوم من الصباح الي المساء أضعف بكثير من الدمعة التي تذوب من العنيين الصافيتين ..
أنه بتحدي الأمواج بساعديه ولكن العزم والتصميم أضعف من أن يستطيعا معا كبت الألم والانتصار علي دمعة فتاة واحدة لها قلبا يدق ويدق ..
والقت آمال رأسها علي صدر عبد الستار و ظلت تبكي وتبكي وتمتمات متقطعه تخرج من فمها " لن اتزوج غيرك .. سأموت يا عبد الستار اذا زوجوني رجب .. سأموت .. وتعاود البكاء ورأسها مدفون في عنف بين ساعدي عبد الستار وظلام المساء يخفي اسرار العاشقين دائما .

جرب عبد الستار أن يتكلم، أن يقول لها بأمكانه أن يتزوجها وهو يده تتحسس الثمن البخس . وخرس من هذا التحسس .. فمعه جنيهات قليله .. فهل يتزوج؟ ويفكر لحظه في الزواج .. ويتذكر أن كثير من رفاقه الصيادين متزوجون واجرهم مثل اجره فلماذا يحرم نفسه من امال؟
تزيد الآلام اكثر لو كانت معه وهل يمكن أن تزداد اكثر مما هي عليه الآن؟
وضم أمال إليه .. والليل يحرسهما.
يوم السبت اذهب واخطبك .. ستكفينا اجرتي..
ارفضي رجب وانتظريني عندما اعود مساء من الصيد ..
وهربت منها فرحه .. وفي خاطرها ألف ألف صوره عن يوم السبت وبقي عبد الستار في مكانه يفكر .. ويفكر .. ويده تعبث بأجره ..!!
الساعه جاوزت السابعة مساء ولم يعد عبد الستار من رحلة اليوم، وآمال تقف علي الشاطئ، عيناها في البحر تنتظر عوده عبد الستار وعلي فمها ابتسامه ليست ميته ولا جافه ولا حزينة ، أن عينها تسبحان بعيدا في البحر الواسع ، سيعود عبد الستار .. حبيبها الاسمر .. ومعه السمك ..
وقاربه يهتز فوق الموج ثائرا منتصرا .. كان الموج هائجا ، ولكن أمال لم تفكر مطلقا بأمر الموج ، لانها تعلم أن عبد الستار قوي .. وان الموج لم يغلبه ابدا.. أو ربما لانها تعيش في جو عام من الفرح .. انساها صور الشر .. وانتزعت من قلبها .. حدس الشر ..
سيعود عبد الستار .. سيضمها الي صدره ويذهبان معا .. الي ابيها .. ليقول له سأتزوج أمال وتضع يدها علي وجهها .. وتغيب في حلم اخضر .. وحبات الماء الطائشة المتناثرة من امواج البحر .. ترتمي عليها فلا تشعر الا وقلقها يتزايد ..

عبد الستار يصارع الأمواج ، يلقي بالشبكة مرة أثر مرة وعدد الاسماك، لم يتجاوز عدد اسماك أمس ...، فالامواج تهز القارب بعنف اقرب ما يكون الي عنف النار ... وقميص عبد الستار مبلل بالماء ، كأنه مغسول منذ لحظات .. ساعدا عبد الستار يكافحان .. يتصارعان .. والشبكه ترتفع ثم تنتشر .. وعدد الاسماك لم يزد .
سيطرده عباس سيقول له مطرود .. مطرود .. اخرج .. اخرج .. ويخرج بلا مال .. بلا عمل .. ليخطب آمال ..
وتزداد المأساة بشاعة في ضميره .. ويشعر أنه يقصد اشياء كثيره كانت تربطه بالحياة .. آمال .. ولقمه العيش .. ستمتد يده الي جيبة مساء كل يوم .. فتلامسان الفراغ نعم الفراغ .. وسيمر من قرب بيت آمال فلا يسمع صوتها ولا يرى ابتسامتها الحلوة ..سيموت جوعا
ويرمي الشبكه مره اخري شأنه شأن المقامر الذي يظل علي صلة بأمل الربح .. وترتفع الشبكه مرة أخري إلي القارب فارغه خفيفة .. ينبعث منها نداء البخل يرسله البحر ...ويلقي عبد الستار نفسه في ارض القارب مشلولا من الحركه جامدا .. عيناه علي الاسماك يتمني لو يتضاعف عددها .. لو أن البحر ليس هائج .. لو انه أكرم عليه بالاسماك . الأمواج تضرب القارب ويزداد صفير الريح .. الزبد يرغي والقارب يتأرجح وعبد الستار لا يحرك ساعديه في وجه العاصفة ..
الساعة الثامنة والنصف مساء.. قالوا علي الشاطئ أن قارب عبد الستار غلبه الموج .. انقلب وتحطم .. وعادت الاسماك الي الماء .. ووصلت اخشاب القارب الي الشاطئ .. وبعد نصف ساعة من البحث، وصلت سمكة كبيرة ضخمه الي الشاطئ اعطوها للامال الباكية ..دون كلمة عزاء واحدة .. امال تحضن السمكة الكبيرة باكيه محروقه القلب . وعباس يفتل شاربه ويدخن الشيشة ويصرخ في وجه عامل آخر اسمه سيد "مطرود .. مطرود.

(4)

شجرة النيل

كأنهما ولدا من بطن واحدة،
هي شجرة تحمل في عروقها كل وداعة النيل .. وهو بغل يحمل بين ضلوعه كل صبر الإنسان ..
كأنا متآلفان للزمان والمكان .. هي ترخي أغصانها حتى تلامس النيل ، وهو يدور وتظل الدائرة المرسومة مجال حركته ..
مرة قرر البغل أن يتمرد ، خاطبا نفسه قائلا أعمل في اليوم الواحد أكثر من نصفه .. أتحمل الجوع والعطش ولا أشتكي . أتحمل لسع عصا سيدي ولا أحتج .. صحيح أن الدوران أصبح عندي عادة ولكن لماذا يغمضون عيني أثناء العمل؟
ألهذا الدرجة لا يثقون بي؟!
آنا كذلك لن أعد أثق بهم ..!!
وبينما هو يخاطب نفسه إذ به يسمع هذا الحوار بين أب وأبنه يقفان بالقرب منه .
سأل الولد : لماذا يضعون
يا وألدي عصابة سوداء على عيني البغل عندما يدور حول الساقية؟
رد الوالد : ليشتغل أكثر يا ولدي فإذا فتحوا عينيه علي الحياة سيتلهى ، وبالتالي سيقل مردود عمله!
لم يعد أي شيء مخفيا، كل الأشياء أصبحت مكشوفة أمام البغل وفي ليلة حالكة السواد ، حول قراره إلي تنفيذ . فبعد أن تأكد من غفوة سيده .. جر نفسه دون أن يترك أي صوت، وأنسحب ..

كانت تدور في ذاكرته جملة موجودات عاش معها ، وبكى لأنه لا يستطيع وداعها .
وفي اللحظة التي شرع بها مغادرة القرية ، شعر بأن قوة هائلة تقوده لرؤية الساقية الذي كان يعمل عليها ، ورؤية شجرة النيل التي كانت ترافقه في وحدته .
أقترب من الساقية ، فكانت بقايا قطرات الماء تتساقط من خلال سطوله المهترئة .. نظرت
إليه صامتة ، لكن الساقية كانت غارقة في حزن قاتل فقد أفجعتها في هذا اليوم الحوار الذي سمعته بين الأب وأبنه .
سأل الولد : يا وألدي لماذا لا يتم إصلاح سطول الساقية لتجر آليهم مياها أكثر؟
ورد الوالد : يا بني آنهم لا يفكرون سوي بالمحاصيل .. !!
أشاح البغل نظره عن الساقية ، وعلق سطوله علي شجرة النيل .. كانت الشجرة ترخي أغصانها بمرارة ، بينما الأسى يكاد يتسرب من جذعها .. كانت مقهورة ، فطر قلبها الحوار الذي سمعته بين الأب وأبنه . سأل الولد : يا وألدي لماذا يقطعون شجرة النيل؟
أن شكلها وديع !
رد الوالد : لآنها لا تقاوم ياولدي، فهي شجرة عزلاء ! قال الولد : ولكن لماذا لا تصرخ طالبة النجدة؟
قال الوالد : لا فائدة ياولدي، حتى لو صرخت فان صوتتها لن يسمع لم يعد البغل قادرا علي تحمل منظر الساقية وأرخى ساقيه للريح ومضى في أرض الله . ورغبة كبيرة تدور في رأسه ،

أنه لن يقبل مطلقا بإغماض عينيه .
تنقل في البلاد ، رأى مزارع ووديان ، صعد جبالا ومشى في سهول . شاهد عمارات وطوابق ، ومازالت عيناه مفتوحتين . كان قلبه

مفتوحا لكنه الأن أمتلأ . . أصبحت بقايا بقع الصبر التي يحملها في داخله ، نقطا هزيلة .. ومازالت عيناه مفتوحتين يرى بهم كل شيء رأى .. رأى .. ورأى ، وأخيرا قرر الخلاص لم ينتحر كعادة الرجال أثناء تعرضهم للمصائب العظيمة : إنما قرر الرجوع الى قريته وهو يخاطب نفسه

" أحيانا يكون العمى أفضل من رؤية الحقيقة "

صل إلى قريته بعد رحلة طويلة، فتوجه على الفور إلى الساقية وشجرة النيل ..

كان يعتقد بعد هذا الفراق الطويل، أن شكل العالم حولهم قد تغير، لكنه فجع ..

لقد أكتشف أن الساقية مازالت كما هي لم تتغير فيها سوى كثرة الثقوب التي كادت أن تملأ سطوله أدار النظر على مكان شجره النيل، فصعق .. لم تكن الشجرة موجودة ..

سئل الساقية عنها ، فردت حزينة وهي تقول " مسكينة شجرة النيل ، أرادت أن تتمرد علي قاتلها فشدت جذعها عندما هوى بفأسه عليها لكنه بكل بساطة أخرج مبردا وراح يسن به فأسه، حتى أصبحت أشعة الشمس تتكسر عليها وقبل أن يهوى به علي جذعها كانت شجرة النيل، قد سقطت جثة هامدة " مادام الموت محتما، فالأفضل أن تختار أقصر الطرق .. "

وكأنهما ولدا من بطن واحدة ، وهى تحمل في عروقها كل الخوف .. وهو يحمل بين أضلاعه كل الذل ..!!

كأنا متآلفان للزمان والمكان، هي ترخي أغصانها حتى تقبل الأقدام .. وهو يدور ويدور ، وكأنه يريد إن يثبت كروية الأرض .

(5)

غلطة العمر

استيقظت في الصبح الفتيق لقس النفس، يفتك بي شجن بليغ وتقاذفني لجج عاتية من الهواجس .
وتأملت زوجتي الشابة التي رقدت بقربي وقد أضاءت ثغرها ابتسامة زادتها ألقا
و جمالا .. وثارت بي موجة من الغضب الهائل علي هذا الجمال الذي يغط في نومة وادعة وهذا الغضب نابع من إحساسي الدائم بانها سبب ابتعادي عن أولادي .. ورأيتني أهزها بعنف وفتحت عينيها الكبيرتين وقد جال فيهما الرعب .. وعندما أبصرتني سرت بها الطمأنينة ثم قالت : صباح الخير يا حبيبي .
ولكنني شذرتها بقسوة ..
وقالت ما بك يا حبيبي؟
لماذا هذا الحزن مرسوم علي وجهك؟
لم أنطق ببنت شفة، غير أنها رشقتني بنظرة كاوية من عينيها الزرقاوين وضمتني الي صدرها، فسرت في عروقي رائحة هذا الجسد البض الذي طالما أجج بي كل الرغبات الملتهبة ولكنني تمالكت نفسي وتملصت منها مقاوما اغراء هذا الحسن التياه الذي خلب لبي وتوجهت الي النافذة أتطلع الي الاشجار في الحديقة وقد تواثبت عليها العصافير، تستقبل الضياء وترتل له أغانيها الحلوة .
واندفعت ورائي، طوقتني بذراعيها وهى تقول :
ماذا بك عادل؟
ليس بخير ..

لماذا.. انت ..
وقاطعتها بغلظة وصرخت في وجهها:
ان زواجنا غلط يا عبير .
فاطلقت عبير ضحكة عالية، فيها أنوثة طاغية وأشحت بوجهي عنها ولكنني أحبك يا عادل .
انني أتعذب .. فارحميني ..
وماذا تريد مني؟
الطلاق ..
هكذا بكل بساطة بعد أن كافحنا طويلا حتي توجنا حبنا بالزواج؟
كان زواجنا خطأ .. ويجب أن نصلحه ..
معني هذا أنك أصبحت لا تحبني.
الحقيقة .. انني مازلت أحبك .
كيف تحبني وتريد الطلاق؟
لراحه نفسي .
وهل أزعجتك في شئ؟
انني أتعذب .. وحياتي أصبحت لا تطاق .. وضميري يلهبني بسياط من نار .. و .. واردت الأسترسال ولكنها سارعت وشدتني إليها ثم قبلتني في شفتي شعرت بنار القبلة تضطرم في جسدي، فذهلت عن كل شئ ..
وانجذبت اليها أمرغ وجهي في صدرها الناهد الذي يزري بياضه بالمرمر .
واحسست بهمود هذه الفورة التي انتابتني وارتعت في جنة هذا الجمال .. وتمتمت : انني سعيد ..
سامحينى يا عبير .
سامحتك يا حبيبي ..
انني مستعد أن أضحي حياتي في سبيلك .

لا أطلب إليك شيئا سوى أن تظل تحبني .
أعاهدك علي الحب الدائم ..
وأندفعت إليها كالمجنون أغمرها بسيل دافق من قبلاتي النهمة التي لا ترتوى من نضارة هذا الجسد الذى سكبه الله في أجمل تكوين، جلسنا نتناول إفطارنا، وقد تبددت هذه الوحشة الكئيبة التي عذبتني .. وماذا أريد من الدنيا سوى أن تكون عبير بقربي تزقني حبها وتفيض علي من هذا الجمال التياه تلك الكنوز الشهية التي لا أعرف الي الارتواء منها سبيلا ؟ ..
وارتدت ثيابي سعيدا، وخرجت الي محلي الكبير أبيع وأشتري وغمرت عمالي بابتساماتي
ولا طفتهم بالحديث، فقد كنت سعيدا حقا، تجتاحني نشوة قديرة .. وجلست في مكتبي أحتسي قهوتي، أتلذذ بنفث من الدخان من " سجارتي " وأطالع صحف الصباح وفجأه ولا أدرى كيف هاجمتني الوساوس وضربتني أشباح سود وتواثبت أمامي رؤى مكفهرة ، فكدت أختنق ..
وحاولت التسرية عن نفسي بالطواف داخل محلي الكبير وملاحظة رواده، غير أن الضيق الشديد جثم علي برهقه، حتي كادت روحي تزهق .. ولكن هذا الضيق لم يفارقني بل ازداد حتي تمنيت الموت للخلاص منه ..
وفجأه وجدت نفسي بالقرب من بيت زوجتي التي طلقتها للاقتران بعبير التي سبهت فؤادي .. لقد شردتها مع أولادي الخمسة حتي يخلو لي الجو معها ..
وما حيلتي .. وقد فتنتني بشبابها و جمالها وسحرتني برقتها ..
و خفق لها قلبي وعرضت عليها الزواج، فوافقت واشترطت أن أطلق زوجتي وأعماني الحب، فاستجبت لها وهدمت البيت الجميل الذى شيدته على دعائم الحب الوثيق في سبيل نزوة طارئة ..

ومن الطبيعي أن عبير لم تتزوجني حبا بي، لأنني ناهزت الأربعين من عمرى وهي لا تزال في العشرين تتفجر شبابا وأنوثة .. وعذبني الشك لأول وهلة في أنها ارتضت بي زوجا لها رغبة في مالي ..
غير أنها أكدت لي مرارا أنها أحبتني ووجدت بي الزوج المنشود حتى شعرت بالطمأنينة وأزدهي بي الفرح لا استطاعتي جذب فتاة في مثل هذا الجمال ..
ولكنني بعد الزواج انصب أهلها الفقراء علي كالويلات، فلا هم لهم سوى أخذ المال مني ..
واذا أمسكت يدي عنهم نفرت عبير، ولوت بوزها وأذاقتني المر من هجرها ..
وكثيرا ما كنت أحتقر نفسي لإهمالي أطفالي، وتنكري لأمهم التي أخلصت لي الحب في أيام الضراء .. غير أن رنوة من عيني عبير الزرقاوين كفيلة بتبديد وخز الضمير الذى كان يلاحقني أحيانا ويسمم حياتي .
وازدحمت بي هذه الافكار وأنا واقف أمام بيت مطلقتي التي لم أرها بعد زواجي من عبير.
واندفعت الى الباب أرن الجرس وأنا مبهور الأنفاس وفتحت هي الباب ولما رأتني كادت تشهق ورجعت الي الوراء قليلا وقد ظللتها سحابة من الغم ولكنها قالت بلهجة مؤدبة : أهلا وسهلا . تفضل .
ودخلت وقدماي تصطكان وقلبي راعش ، تهالكت علي أقرب كرسي، استطعت أن أرفع عيني اللتين اتقد فيهما الخجل ..
واستطعت أن أقول : كيف حال الأولاد ..
بخير
وأين هم الآن ؟
في بيت خالهم .
كلهم ؟



ما عدا شيماء
وشيماء أحب أولادي الى نفسي لانها بكري . وهي في العاشرة من عمرها، أسبغ الله عليها الجمال ومتعها بالذكاء وخفة الروح .
ورفرف قلبي طربا لانني
سأراها، ولهذا سارعت الي القول : أين هي الآن ؟
في غرفتها .. نائمة .
تنام في مثل هذه الساعة ! .
لانها مريضه .
و صعقت و صرخت : مريضة .. بماذا ؟
بالتفوئيد . ولهذا عزلت اخوتها عنها في بيت خالهم .
ولماذا لم تخبريني ؟
وماذا يهمك من أمرها ؟
انها فلذة كبدي ؟
وهل تذكرتها مرة واحدة منذ زواجك ؟ ..
وكدني عرق بارد واحتقرت نفسى ولعنت الساعة التي انقدت فيها لاهوائي الجامحة .. واندفعت كالاعصار المجنون الى غرفتها .. وانكببت عليها أقبلها وأضمها الي صدري .. وفتحت عينها الذابلتين وتمتمت .. بابا ..
وكادت روحي تسيل مع هذا النداء الحبيب وقلت :
نعم . بابا . يا حبيبتي ..
وأغمضت عينيها ثانية، غاص قلبي بين جنباتي ووضعت يدي علي جبهتها المحترقة وتمنيت لو أن الجحيم تتلقفني كفاره عن ذنوبي مع هذا الملاك الوديع .
وقلت : ألم تأت لها بالطبيب ؟
خالها جلب لها الطبيب .
ولماذا خالها ؟

وأنى لنا لندفع أجر الطبيب وثمن الدواء ؟ ..
آه لو تبتلعني الأرض، وتريحني من وجودي .
وقلت أخيرا : لماذا لم ترسلي أحد الأولاد الي لأحضر لها الطبيب ؟
حاولت .. ولم أوفق
كيف ؟
طالبت من محمد أن يذهب اليك، فرفض .
لماذا ؟
قال لي : لو أن أبي يريد مساعدتنا لما تركنا .
وعذبتني آلام لا قبل لإنسان بها .
وغيرت بي هنيهات كنت بها فريسة للشقاء الدامي . وفجأة فتحت شيماء عينها الواهنتين وهمهمت : بابا .. أنا أحبك لا تتركني .
لن أتركك ابدا يا شيماء .
وأمسكت بيدي وأحسست بسعادة لا حد لها وقالت اين كنت غائبا كل هذه المدة ؟
كنت في سفر ..
ولكن أمي قالت أنك تركتنا الى الابد ..
غير صحيح .. لانني عدت إليكم .
ولن تفارقنا بعد الآن ؟
يستحيل أن أفارقكم لحظه واحدة .
وأغمضت عينها، قد طاقت علي ثغرها ابتسامة، أضاءت وجهها بنور وهاج شع في نفسي حبا وأومأت الي أمها لتخرج وانسحبنا برفق بعد أن دثرتها باللحاف وطبعت علي جبهتها قبله أودعت فيها كل حناني وحبي واشتياقي.
وعندما استقر بنا المقام في حجرة ثانية لم أدع نفسي فريسة للعواطف المتضاربة،
قلت فورا:

يا صابرين .. جئت أطلب منك الصفح عن جريمتي وأطرقت وقد شحب وجهها قليلا .
واستطردت قائلا :
أتضرع اليك باسم ذكرياتنا المشتركة وعشرتنا الطويلة، أن تغفري لي .
ونظرت الي، وقد ماج في عينها طيف من الالم المكبوت، حتي تجسدت آمالي لوعه خرساء وهززتها برفق وهتفت : قولي كلمه واحدة تجعليني بها
أسعد مخلوق .
وما الكلمة التي تريدني أن أقولها؟
قولي : وافقت
علي ماذا
قولي انك وافقت نرجع ونعيش تحت سقف بيت واحد.
طيب وافقت.
وقبلت يديها وبللتها بدموعي وتهدج صوتي : أنت ملاك، انك أنبل انسانة، ولقد أجرمت كثيرا بحقك، لكنني سأعوضك، بحبي واخلاصي عما سببته لك من آلام.
ما كل هذه العواطف الآن .
وضح لي الطريق .. ان زواجي الجديد كان جريمة بحق نفسي وحقك وحق أولادنا
مع هذا تزوجت .
أخبرتك أنني اقترفت جريمة وأنا شديد الندم ..
وخرجت من منزل أم أولادي وانا مصمم علي إنهاء زواجي من عبير.
وأسرعت الى عبير وكانت في أكمل زينتها ، تتهيأ للخروج
وقالت : أنا ذاهبة الى الخياطة ..

اذهبي ولا تعودي.
واكفهرت سحنتها ورجفت أهدابها وتمتمت : لاشك أنك تمزح.
ابدا.
ماذا تعني؟
اعذريني ياعبير .. زواجنا غلط .
وما الغلط في زواجنا؟
عندما اترك أم أولادي التي كافحت معي طيلة السنوات السابقة بلا ككل ولا تعب يصبح زواجنا غلط، عندما أترك أولادي دون ان أعتني بهم يصبح زواجنا غلط، عندما أترك احد غيري ينفق علي أولادي يصبح زواجنا غلط .
ماهذا الكلام الفارغ؟
أنتي طالق ياعبير .
وزمت ما بين حاجبيها بالشتائم ..
وهرعت الى أم أولادي وأعدتها الي عصمتي وتدافعت بي الرحمة والحب والحنين
وأنا أضم أولادي الي صدري .

(6)

مريم

استيقظت مريم الطفلة البريئة في الصباح نشيطة سعيدة، فقد أحضرت لها والدتها الفستان الأبيض الذي طلبته منها، لتحضر به زفاف إحدى قريباتها اليوم في الكنيسة، فتحت خزانة ملابسها وأخرجت منه الفستان الجديد والحذاء الأبيض وشرائط الرأس، وهي تستعد لأن ترتديها لحضور الزفاف.

جرت مريم إلى غرفة والدتها لتوقظها كي تساعدها على ارتداء الملابس، نظرت إليها والدتها وهي تبتسم، قائلةً لها: «ما زال الوقت مبكراً يا مريم، فالساعة لم تتجاوز الثامنة صباحاً والعرس في المساء، اذهبي ونامي».

خرجت مريم من غرفة والدتها وهي تجري إلى غرفتها تمسك بالفستان والحذاء وشرائط الرأس، ترتبها حتى لا يصيبها شيء، تمر الدقائق ثقيلة عليها، فهي تريد ارتداء الفستان بأي شكل.

في الظهيرة سمعت مريم أصوات الزغاريد تدوي في المنزل جرت مسرعة لأمها تحضها على أن ترتدي الفستان وتخرج مع العروس المتجهة إلى مصفف الشعر، تربت الأم على ظهر ابنتها الصغيرة وتقول لها: «لا تتعجلي يا مريم سوف يأتي الوقت الذي ترتدين فيه الفستان، وسوف أصفف لك شعرك وأضع لك الماكياج».

تسرح مريم بخيالها الطفولي وهي ترى نفسها ترتدي الفستان الأبيض وتتجه إلى الزفاف الذي تحلم به كل فتاة.

في الساعة الخامسة عصراً نادتها أمها لترتدي الفستان وتصفف لها شعرها وتضع لها الماكياج لتذهب معها هي ووالدها إلى العرس.
أنهت مريم تصفيف شعرها وتوجهت مع والدها ووالدتها إلى الكنيسة لحضور الزفاف، وسط تجمع الأهل والجيران، والسعادة ظاهرة في عينيها، تذهب إلى كل أقاربها ليروا فستانها الأبيض الذي يشبه فستان العروس.

لحظات سعيدة تمر على الجمع الكبير أمام أبواب الكنيسة في انتظار حضور العروس، والطفلة مريم تترقب لتراها.
فجأة قطعت الطريق سيارة بيضاء، وجاءت خلفها دراجة نارية مسرعة فوقها ملثّمان، أطلق أحدهما بكل برود وابلاً من الرصاص على الواقفين أمام باب الكنيسة في انتظار تهنئة العروسين.
النيران أُطلقت بشكل عشوائي ومن سلاح آلي لا يعرف الرحمة ولا يفرق بين رجل وامرأة، كبير وصغير، ولهذا لم يرحم الرصاص الطفلة البريئة الصغيرة.
ساد الهرج والمرج المكان، الدماء تملأ الأرض، والجثث متناثرة في كل مكان، أشرف والد مريم ينهض ليبحث عن طفلته وزوجته كالمجنون. فجأة تسمرت عيناه على مشهد ابنته وزوجته وهما غارقتان في دمائهما، وتحوّل الفستان الأبيض الذي ترتديه مريم إلى الأحمر بعد أن كسته الدماء البريئة. جرى الأب مسرعاً يحتضن ابنته وزوجته والدموع متحجرة في عينيه، وصرخات الأم المصابة تدوي في المكان. فارقت مريم الحياة وهي ترتدي الفستان الأبيض الذي كانت تحلم بأن ترتديه ليلة عرسها، بعدما انطلقت الرصاصات الغادرة من أيادٍ لا تعرف إلا القتل والغدر والإرهاب...
أمام المشرحة التي نقلت إليها جثث القتلى الذين سقطوا في حفلة الزفاف، والد الطفلة مريم يقف مذهولاً من هول الصدمة ينتظر تسلّم

جثمان طفلته... الدموع تملأ أعين أهالي الضحايا، يقف أشرف أمام باب المشرحة مصراً على الدخول ليقبل ابنته قبل أن يلف جثمانها البريء ويوارى الثرى.
سوف تظل دماء مريم تصرخ ماذا فعلت لهؤلاء ليقتلوني؟

(7)

الزوج الحزين

طفلة وُلدت صارخة، لا صرخة الحياة، ولكن صرخة النوح والندب على أمها.
صرخة حزينة، كأن المسكينة شعرت أن الدنيا خالية من الصدر الذي يُدفئها!
صرخة تتردد في ضراعة كأنها جملة مركبة من هذه الكلمات: (يا رب ارحمني من الحياة بلا أم!).
اما زوجتي الحبيبة لما ضربها المخاض ضاعفت قوتها من شعورها أنها ستكون بعد قليل مضاعفة، وستكون روحين لا روحاً واحدة، وتلد لي الحياة والحب وتأتي لقلبي بطفلتي الأولى. كل ذلك ضاعف قواها ساعة وشدّ منها، ولكن ما أسرع ما تبينت أنه الموت إذْ عسرت زوجتي في ولادتها وجاءها الطبيب بأدوات الجراحة، وكأنما رأته ذابحاً لا طبيباً فجعلت تعبر بعينها إذ لم تملك في آلامها القاتلة غير لغة هاتين العينين.
كانت بنظرة تبكي علي وعلى بؤسي، وبأخرى تبكي على بؤس مولودها وشقائه؛ وبنظرة تودعني، وبأخرى تدعو الله لي جزاء ما أحسنت إليها؛ وبنظرة تتوجع لنفسها، وبأخرى تتألم من أنها تراني أكاد اجن.
نظرات، نظرات.
يا إلهي! لقد خيل إليّ أن ملك الموت واقف بين عشرين مرآة تحيط بها، فأنا أراه موتاً متعدداً لا موتاً واحداً. وكل نظرة من عينْي زوجتي إليّ كانت منها هي نظرةً، وكانت عندي أنا مرآة الروح للروح.

ولكنها لم تنس قبل ان تموت ان تضع مولودها، وإن هذه الآلام الدموية الذابحة هي الوسيلة لأن تترك لي بقية حياة منها؛ فيا للرحمة والحنان والحب! لقد ابتسمت لي وهي تموت، وهي تلد، وهي تذبح!
ليست رحمة المرأة المحبة خيالاً إلا إذا كانت حرارة الشمس التي تحي الدنيا خيالاً أيضاً؛ ما أعظم قلب المرأة تحمل في أحشائها الجنين صابرة راضية فرحة بآلامها وتقاسمه حياتها نفسها ـ هذا القلب يحمل الحب أيضاً صابراً راضياً فرحاً بآلامه.
ابتسمت زوجتي ابتسامة الحب التي غالبت زفراتِ الموت التي تعتلج من تحتها حتى غلبتها، وأعادت الحياة لحظة إلى وجه زوجتي لأراها آخر ما أراها في صورة المُحبة، فكان كل جمال نفسها منتشراً على ذلك الوجه، وظهرت فيه روحها وعواطفها تودعني وداعاً حزيناً متبسما يتكلم؛ يتكلم بعجزه عن الكلام.
ابتسامة لا ريب أن فيها أشياء ليست من جمال هذه الدنيا ولا من حقائقها؛ فكأنما التمعت بأشعة من الخلد ترف رفيفها على وجه الحبيب ليظهر ساعة الموت أن حبه أقوى من الموت.
وجاءت الطفلة الى الدنيا، كانت زوجتي تتمنى أن يكون الجنين بنت، بل كانت مستيقنة أنها تضعها بنت، وصنعت لها ثيابها، ووشتها بزينة الأنوثة، وعرضت أسماءَ البنات فاختترت اسمها أيضاً، وكنت أكره ذلك منها وأريد ولداً لابنتا، فكانت تغايظني بعملها وإصرارها غيظ دعابة لا غيظ جفاء.
ومضت لا تذكر إلا بنتها مدة الحمل، ولا تتكلم إلا عن بنتها، وقد كانت أعجب لذلك، فلما قضى الله فيها قضاءه علمت أن ذلك أمر من أمر الروح، فكان الإلهام فيها أنها على باب قبرها وأنها لن ترى طفلتها ولن تعيش لها، فعاشت أيام الحمل مع ذكراها، تضم ثيابها إلى صدرها، وتحملها على يدها، وتناغيها وتقبّلها، وتأخذها من الوهم وتردّها اليه. وكذلك نعمت المسكينة بالمسكينة!

ولما قيل: ماتت
- جعل يكلمني المتكلم ولا أعقل، انه ليس كلام بل بأسلحة تضرب في النفس وفي العقل، وتُثْخنُها جراحا وفتكا.
وجعلني موتها كأني ميت يحمل نفسه، ما حوله إلا المشّيعون، وأحسست كأن قوة أخذت بإحدى رجليّ فوضعتها في الآخرة، وتركت الثانية في الدنيا، ولحقني من الجزع ما الله عالم به، وبكيت أحر البكاء،
بموتها شعرت بها، ولعله من أجله ذلك لا يشعر الإنسان بلذة الحب كاملةً إلا في آلام الحب وحدها، وكانت في حياتها تملأ حياتي سرور وحب، وهذا هو سرّ المرأة المحبوبة، يجد مُحبُّها في كل سرور لمحات روحانية، وكذلك فعلت بعد موتها، فجعلت روحها في أحزاني؛ ولولا أن روحها في أحزاني لقتلتْني المصيبة.
وكنت أدلف وراء النعش وقد صغر في نفسي الشعور بالدنيا، وكان الناس يمشون حولي بما فيهم من الحياة، وكانوا ذاهبين إلى المقبرة على أنهم سائرون كما يذهبون إلى كل مكان، أما أنا فكنت أمشي بما فيّ من الحب منكسراً منخذلاً، لأني وحدي سائر وراء مالا يلحق.
وكنت وحدي المصاب بينهم.
أنا أمشي لأنتهي إلى آخر مصيبتي، وهم يمشون لينتهوا إلى آخر الطريق؛ وشتان ما انا فيه وشتان ما هم فيه !
ولما رأيت قبرها ابتدرت عيناي تنظران بالدموع لا بالنظر، ورأيت التراب كأنه بألوان السحب السوداء تتهيأ في سمائها تحت الظلام لتخفي كوكباً من الكواكب؛ وظهر لي القبر كأنه فم الأرض يخاطب الإنسان بحزم صارم، يخاطب الفقير والغني، والضعيف والقوي، والملوك والصعاليك: (إن كل قوة تنزع هنا).
وحضرت المأتم وعزّاني الناس فكنت فيهم كالمأسور ، وأرى أنهم يجرعونني الوجود غُصصاً كما تجرعت الفقدَ غصة، إلا أن تفرقوا

مع سواد الليل، فانكفأت إلى الدار فإذا كل شيء تغير قد لمسه الموت لمسة، وإذا الدار نفسها كالعين المجروحة من آثار البكاء، تخبرني بأن مسراتي قد ماتت! ولاح الصبح ليعني الساهرتين، صبحاً فاتراً تبينتُ فيه الخجل كأنه يقول: (لم أطلع لك)، فانسللتُ من البيت، وذهبت أمشي في دنيا هي الكآبة المضيئة، سِخرت الأقدار منها بإظهارها في هذا الضوء مظهر وجه العجوز المتصابية في زينة لا تزيدها إلا قبحاً!

ومضيت على وجهي لا غاية لي، أضرب في كل جهة كأنما أريد أن أهرب من نفسي! وما خطر لي قط أني في يوم جديد، بل كنت عند نفسي لا أزال في أمس، وتغير عندي الزمان والمكان؛ فأحدهما ساعة موت لا تترك ما فيها، والآخر قبر ميتة لا يرد ما فيه.

آه من الوقت الذي ينتهي فيه الموجود ليعذبنا بالتذكر إِنه كان موجوداً!

ثم أعادتني قدماي إلى البيت لأرى طفلتي وما كنت رأيتها ولقد كانت ولادتها أول الحياة لها، وأول الحياة لي أيضاً، إذ لولاها لانتحرت غير شكٍّ.

يا ويلتا! لم تلتق عيني بعين الطفلة حتى انفجرت تبكي، أتبكين لي يا ابنتي؟

أهذا بكاؤك أيتها المسكينة، أم هو صوت قلبك اليتيم؟

أصوتكِ أنتِ، أم هي روح أمكِ تصرخ ترثى لي وتتوجع لفرط ما قاسيت!

يا ابنتي، إنما أنت الحقيقة الصغيرة التي خرجتْ لي من كل تلك الخيالات الشعرية الجميلة - خيالات الأيام السعيدة التي مرّت! يُخلَق المواليد من اللحم والدم، وأراكِ أنتِ يا مسكينة، خلقتِ من اللحم والدم والدموع!

مسكينة، مسكينة، لو أن نواميس العالم متغيرة لشيء لتغير من أجل بؤسك فردت لك الأم، ولكنها لم تتغير وآلامنا وتعاستنا ستبقى.
وأراكِ يا بنتي كالبيت الذي هُدِم أوَل ما بنى يملؤه ترابه!
لن تتغير النواميس، فلن تجدي عطف الأم، ولكن لن يتغير قلبي أيضاً، فلن تحرمي عطف الأب.
وإذا صبر الناس على الحياة فمن أجلكِ يا مسكينة! من أجل ضعفك وانقطاعك سأعاني الصبر لك، وأعاني الصبر لي، وأعاني الصبر من أمك، سأصبر على الصبر نفسه!
يا ابنتي، يا ابنتي، لماذا وضعتك الأقدار في هذه الحياة، في الناحية التي ليس فيها إلا قبر مظلم مقفل على أمكِ، وأب مسكين مقفل على آلامه؟!
وهكذا كتبتُ من أهل البؤس والهم، فلم أتزوج إِلا لتصنع لي حبيبتي دموعي، ثم لم تمت إلا بعد ان تركت لي حبيبةً أخرى ستظل زمناً طويلا تصنع لي دموعي.

(8)

نـهار من أيام الخريف

نـهار من أيام الخريف، بدأ ثقيلاً طويلا قاتماً، ومضى عاصفاً ، وأقبل الليل فسال الظلام على جوانب الكون كثيفا مطبقا، الريح عاصفة عنيفة باردة والسماء يغشاها سحاب أسحم ومطر سخي، أوراق الشجر تساقط مستسلمة، وسحف النخيل يتحدى العاصفة، والعاصفة تداعبه وتعبث به، فتشيع في أطراف الليل حفيفا موحشا يشبه أن يكون أنين أرواح هائمة في أودية العذاب، أصوات الذئاب يتجاوب بها الصدى، والكلاب ترد عليها بنباح قوي مختلط يتصل حيناً طويلا، ثم ينقطع لحظات، ثم يعود فيتصل ويختلط، على ان هذه الأصوات المختلطة المبهمة كانت تنجلي أحيانا عن نداء أو غناء يردده أحد الفلاحين في حقل بعيد، سكون موحش يثير القلق، ويحمل على الشك، ويدفع الرهبة إلى النفوس دفعا. . . وقف رضا قليلا ثم تردد في استئناف السير. . . لقد جسم له الوهم والخوف من الظلام أعمدة جاثمة تعترض الطريق كأنـها اشباح سود، وكان رضا يقف أحياناً يتطاول بعنقه ويرهف سمعه ويضرب بعينيه في الظلام كأنما يبحث عن قبس أو هدى: إنه يحمل في جيبه مالاً كثيراً وهو يوجس خيفة، وهو فوق هذا وذاك يحس شيئاً من الجوع والتعب وبين بلده ساعةً وبعض ساعة فلماذا لا يبيت في بلدة قريبة وهي على بضع دقائق فقط ريثما يسفر الصبح؟ وتذكر صديقاً قديماً هو شيخ الخفر وأكبر الظن أنه سيطعمه من جوع ويؤمنه من خوف ويهيء له من امره راحة وأمناً. . . ومن أحق بـهذا من شيخ الخفراء؟! ولكن (رضا) لا يستريح إلى هذا الحل ويتردد طويلاً قبل أن يبيت فيه لأنه

يعلم عن شيخ الخفراء ما ليس لنا به علم، إنه يخشى أن يجيئه الهلاك من مأمنه، شيخ الخفراء عتيد في الأجرام، وأكبر اليقين أنه لا يتورع من أن يضيف إليها فصولاً جديدة من الاجرام. ولكن أتراه يعتدي على ضيف ينزل بداره ويلجأ إليه؟ ربما! اخذ رضا يضطرب بين الشك واليقين ويتصارع في نفسه الأحجام والأقدام فلعل الله يجعل له فرجاً من الضيق، ومخرجاً من الحيرة، ومن الخوف أمناً وهدى. . .

أما عبد الجبار شيخ الخفراء فهو رجل مديد القامة، شديد البأس، قوي مفتول، له وجه تشيع في قسماته الصرامة، وعينان ينبعث منهما التحدي والشر، كان فيما مضى من أيامه قاطع طريق ويهدد يسلب الناس اموالهم اكرها، ولم يجد في القتل حرجاً ولا في السلب جناحاً، بل إنه ليعدها من مفاخره. وعبد الجبار فقد كان من القرويين الذين تغلب فيهم سيطرة الأجرام، ويتحكم في رجولتهم شر اسود في لون هذا الليل العاصف المدلهم، لم يكن يردعه قانون، ولا يمنعه عقل ولا عاطفة، عُين شيخاً للخفراء فزاد عبثه وما زال يصل أسبابه بأصدقائه القدماء من اللصوص والقتلة، يدلهم على مواطن الصيد ويمهد لهم سبل الإفلات. . .

واتصلت جرائمه واضطرب الأمن في بلده والبلاد القريبة، والناس يعلون أن لعبد الجبار يداً في كل شيء، لكنهم خائفون لا يهمسون، لأن لعبد الجبار عيناً ترقب الثرثار، ولأن الناس يدفعون هذا الصمت ثمناً لأرواحهم وأموالهم إشفاقاً من انتقامه وهم يؤدون إليه ما يفرض عليهم .

أما رضا فقد قلب الأمر غير مرة وانتهت المعركة في نفسه أخيراً. . . وتغلبت على وساوسه نوازع الثقة في الله ودوافع الخوف من السير في الظلام والبرد، وتعاونت هذه الأسباب كلها على أن تسوقه إلى بيت عبد الجبار ضيفاً. . .

طرق رضا باب عبد الجبار في رفق ففتح له وأحسن استقباله وقدم إليه طعاماً وأعقبه بالشاي، ثم سمر معه إلى وهن من الليل وتركه ليجول في البلاد جولة بعد أن أوصى به ابنه احمد أن يهيئ له فراشه في المندرة، سهر رضا واحمد ما طاب لهما، وسمرا ما تشقق بينهما الحديث وشربا الشاي غير مرة، ودخنا كثيراً ثم ثقلت أجفانهما وفترت أعضاؤهما ولحقهما الخمول، وأحسا الحاجة إلى الراحة فقام كل منهما إلى فراشه، ونام رضا بعد ان توكل على الله وأسلم إليه وجهه.

وعاد عبد الجبار بعد ما انتصف الليل وقد طوعت له نفسه أمراً، وأحسب أن هذا الأمر قد اختصم في نفسه طويلاً مع الواجب، واحسب أن بقايا المروءة المتناثرة في زوايا قلبه قد تجمعت فانطلقت تقرع أذنيه في عنف واتصال. . .! ربما لم يسمع، وأكبر الظن انه سمع، ولكنه سخر من ضميره وضحك من هذا الخور الذي لم يألفه في أعصابه، اتجه إلى الباب ففتحه ودار ببصره في الظلام والنجوم، ثم أرسل ضحكه مكبوتة كأنها في فحيح أفعى هائلة ثم انقلب إلى الداخل ثانية وأجمع رأيه قبل أن يبدله ما يرده، حمل الذئب (بلطته) وتسلل إلى المندرة فدخل ثم وقف وأنصت وتقدم إلى النائم فناوله ضربات متصلة قطعت ما بينه وبين العالم من أسباب الحياة.

اضطرب القتيل قليلاً ثم ساد السكون مرة أخرى. . .! وتحسس عبد الجبار جيب القتيل فلم يجد معه من المال قليلاً ولا كثيراً.

اذهلته الدهشة. .! أين اختفى المال الذي كان مع رضا.؟ لاشك أنه حفظه في مكان ما في نفس المندرة. . . ولم يتردد

عبد الجبار في أن يخفي أثر الجريمة أولاً. . . فلف الجثة وحزمها ثم حملها مطمئنا آمناً، لأن الشك ينحسر عنه !!

وللمرة الأولى أحس عبد الجبار رجفة تأخذ أعصابه وهماً مبهماً جائشاً يستبد بروحه ويضيق عليه أنفاسه، وثورة داخلية تصم أذنيه

وتدور برأسه. . . لقد أخذه الندم! وأفاق ضميره ولكن متى. . .!؟ سمع عبد الجبار وقع حوافر الخيل تأتي مسرعة وتناديه أن يقف. . إنهم شرطة الدورية! غامت الدنيا في عينيه وملكه اليأس ! قاتل! وشيخ خفراء!! جريمة ذات شعبتين، قاده الجند إلى منزله أولاً وعلى كتفه ضحيته. . وحسر الجند اللفائف وكشفوا في وجه القتيل وصرخ عبد الجبار وخر صاعقا. .!

لقد قتل ابنه خطأ. . .! واستيقظ رضا فزعا فأدرك كل شيء، وأعلن أنه كان ينوي أن يبيت في المندرة لولا أن احمد رأى أنها رطبة لا تلائم الضيف فنقله إلى غرفة أخرى وأخذ مكانه في المندرة.!

وكان يوم الحكم أكتظت القاعة بالوفود ووقف القاتل في القفص يبكي في إطراق طويل ومرارة ملتهبة وحسرة لجوج، وساد السكون فجأة لما ارتفع صوت القاضي يدوي في القاعة قوياً جلياً هادئاً (تحويل اوراق المتهم لفضيلة المفتي).

وقاد الجند الرجل المحطم إلى قاعة النيابة في أعلى المحكمة وهو. لا يزال ينشج كالأطفال. . . وغافل الرجل المحطم الحراس وألقى بنفسه من أعلى المحكمة فهوى جسدا هامداً من اللحم والعظم.

(9)

غروب وأفول

صحف مقتضبة من كتاب الانسانية المعذبة، واوراق مقتطفة من شجرة الحياة المرة
نزفها الى ذوي القلوب الرقيقة والنفوس الحساسة الذين يشاطرون البائسين اعباء همومهم واحزانهم
امرأة هجرها زوجها منذ امد بعيد فعاشت وحيدة مع طفلها إلى أن قضت نحبها، فذرفت عيني دمعاً التأمت قطراته بعض كلمات في مقال قرأها الزوج الهارب في الجريدة التي اعمل بها صحفيا ثم جاءني يسعى. . .)
في سكون الليل الرهيب طرق باب منزلي، فلما أن فتحته وجدت أمامي شخصاً لم أتبينه
قلت: من؟
قال: ألا تعرفني؟
قلت: معذرة. . فمن طبيعة الإنسان أن ينسى، ومن صفات الليل أن يسكب لوناً غير لونها
قال: صديق قديم
قلت: (مرحباً). . ثم أخذت بيده إلى غرفة الاستقبال وتحت ضوء المصباح رأيت أمامي رجلاً في العقد الرابع من عمره، ترتسم الكآبة على وجهه الشاحب ويظهر عدم الاكتراث على لباسه غير المنتظم وقميصه كالخرقة البالية. . . قلبت بصري في زائري الكريم ولكنني لم اذكر تلك الصداقة القديمة التي كانت تربطني به، لذا أحسست في

نفسي بشيء من الريبة والخوف. وقبل أن أقول شيئاً أو ابدي حركة اعتدل ضيفي في جلسته ثم قال:
- أماتت حقيقة. . .؟
قلت: من؟
قال: زوجتي
قلت: ماذا تعني؟ أنت اعلم بحالها، أما أنا فلا أدرك ما تقصد ولا ادري من أمرك شيئاً
قال: بل انك تدري كل شيء ولكنك تريد أن تجهلني وتجهل كل شيء وبالأمس أخرجت للناس صورتي مشوهة ممسوخة، أملاها عليك خيالك الحاقد وأعصابك الثائرة، فقد قرأت مقالك في تلك الجريدة .
قلت منتفضاً: أأنت فلان. . .؟
قال: نعم.
قلت: معذرة، لقد غيرت الأيام من سحنتك وبدل الزمان من هيئتك، حتى أضحيت شخصاً غير الذي كنت اعرفه أتدري ما فعل الخريف في الشجرة المورقة؟
أتعلم ما ينتابها من تساقط أوراقها وتراجع أغصانها وتقلص ظلالها. أن ما يصيبها في تلك الآونة لأهون والله مم أصابك في خريف حياتك، ولئن كان لتلك الشجرة ربيع تستعيد فيه ما فاتها وتسترجع فيه أسباب الحياة، فهيهات أن تجد لنفسك ربيعاً يبدل من حالك بعد هذا الجدب الذي أصابها. وحسب الأيام منك الآن إنها ستقف عند الحد الذي وقفت عنده فلا هي بدافعة بك إلى الأمام لأن النمو من خصائص الطبائع الحية، ولا هي بقاذفة بك إلى الخلف لأنك في قرار الهوة. . . ولطالما مدت إليك حبال النجدة وقد فتلت من خيوط الرحمة والعطف والصفح والمروءة. ولكنك أبيت إلا أن تقطعها بأسنة الجمود والنكران والرياء والغرور، فربطت مصيرين بمصيرك وقتلت نفسين وأسأت إلى نفسك

قال: مهلاً، فقد بدأتني قبل أن أبدأك، وأوغلت في القول وما تركت جارحة إلا وأرسلتها تنهش في نفسي واراني قد جئت لأغسل إهانة فأتبعتها بأخرى وأتيت لأرد سهماً فأصابتني منك سهام ولا ادري من سبب يجعلك مني في هذا الموقف العنيد سوى انك كنت تنظر بعين واحدة في قصتي وتسمع بأذن واحدة. وليس ببعيد على المرأة التي تدفع العالم بيدها الرقيقة دفعاً شديداً في غير رفق ولا هوادة أن تكون قد سكبت سمومها في نفسك فجعلت منك نصيراً لقضيتها، وهي إذ تكسبك إلى جانبها تدفعك في الواقع عن طريقها، منذ اللحظة الأولى وهي تريد أن يصرع رأيها رأيي وان تقف رغبتها دون رغبتي، فإذا قلت قولاً أبدت نقيضه وإذا أديت فعلاً امتعضت منه، كأن الله قد جعل القبح من نصيبي في القول والفعل، أو كأنه وضع كل الجمال بين شفتيها وعلى أطراف أناملها ليكون غلافاً حسناً لكل ما تقوله أو تعمله. . . . . . أردت لها الحجاب فأعلنت السفور وأخذت عليها العناد فأنكرت علي هذا الحق وأحببت أن تكون كما أريد فشاءت أن تكون كما تحب. كان من اثر كل هذا أن أحسست بآمالي ترتطم بصخرة قاسية وشعرت بالأفق العريض تضيق دائرته شيئاً فشيئاً، حتى أوشك أن يجعل لي من هذه الحياة قفصاً لا حيلة لي في رد غائلته. . . فماذا كنت تريدني أن افعل، وهذه الأسباب قد أجمعت على أمرها فغلبتني على أمري. .؟ لقد وليت هارباً، ولكن ضميري ظل يضايقني باحتباسه حتى أفرجت عنه بكأس الخمر. . تلك الكأس التي أحرقت همومي وأحرقتني، وأذابت ضميري وكبدي وسلبتني ولم تعطني. . . أليست تلك النار من الشعلة التي أسلمتها الشياطين ليد المرأة. .؟ انك تقدر المرأة لأنك غريب عنها ولكن اعلم إنها منذ القدم آلة فساد وعنصر تقلب، وأداة رياء، وكل ما في الحياة من شر إنما هو بسمة خادعة انفرجت عنها شفتا امرأة، وهذا المصير المحزن الذي انحدرت إلى أعماقه، إنما يرجع إلى تلك المرأة التي

أحببتها فكرهت لي الحياة، وغمرتها بفضلي فرفعت رأسها كالحية الرقطاء. . . مرت الأيام كالأشباح الهزيلة، وأنا أهيم على وجهي إلى أن شاءت الأقدار أن تدفع إلى يدي تلك الصحيفة التي تكتب بها فقرأت عن المرأة التي هجرها زوجها فماتت كظيمة الحزن دفينة الألم، وبقي طفلها على صدرها يبكي وينتحب ورأيت طرفاً من قصتي يختبئ بين سطور تلك القصة وما أن وصلت في القراءة إلى اسمك في ذيل المقال، حتى ذهب عني الشك وتذكرت جاري القديم وأخذت عليه اندفاعه في الكتابة دون تبصر أو روية. . . وها أنا قد سعيت إليك فسررت أن رأيت المرأة تدفع دفعاً إلى المكان الخليق بها.

قلت: يشاء الجمود أن يجعل في نفسك طبيعة صخرية حتى أمام جلال الموت وتشاء تلك الطبيعة الصلدة أن تنبش قبور الراقدين في غير رحمة ولاشفقة، فزوجتك التي لفحت وجهي بأنفاسها المحترقة وهي تعاني عذاب الموت، والتي ظلت تردد اسمك إلى أن لفظت روحها تلك الزوجة المسكينة المنكوبة يأبى عليها القدر القاسي أن تفوز منك وهي تحت أطباق الثرى إلا بوابل السخط واللعنة تصبه على جسد هامد لا يملك رد غائلة، ولا يقوى على دفع نازلة ، وهذا عداء ضاعت منه صفة الشرف. . . والمرأة منذ خلقت وهي تعاني شر هذا العداء لا لشيء سوى أن الرجل يميل بطبيعته إلى جنسه وتدفعه الأثرة إلى أن يسود نفسه ويعظم من شأنه ويحقر من أمر تلك المخلوقة التي جاءت تنازعه البقاء وللأسف في الجاهلية كان يئد مولودته ولا يعترف لها بالحياة، حتى في عهود المدنية فانه يرى انها عورة، وهذا لطخة دامية في جبين الجميع.. وفي مصر والبلاد العربية لا تفوز الزوجة غالباً من زوجها إلا بما تفوز به الخادم من سيدها. فهل رأيت حالة كريهة كالتي تعانيها المرأة منذ ولادتها حتى يحويها الموت. . .؟ وأي الأمراض انفردت بها المرأة عن الرجل

حتى استحقت منه هذا الجزاء. . .؟ أليست كل امرأة ابنة لرجل وزوجة لرجل وأما لرجل. تأخذ الخلق عن أبيها وتهديه إلى زوجها وترضعه لطفلها. . .؟ فإذا فسدت المرأة أليس هذا الفساد أثراً من تهاون أبيها في تربيتها. . .؟ وإذا ضلت المرأة أليس من بين الرجال من هم اشد منها ضلالاً واقبح رذيلة. . .؟ ولئن جاز للرجل أن يقول في كل ما ينتابه من مصائب: (فتش عن المرأة) إلا يجوز للمرأة أن تقول في كل ما يلحقها من أذى: (فتش عن الرجل). . .؟

اما عن الحجاب والسفور لا يوجد احد يوافقك على تلك اللطمة القاسية التي صفعت بها خد المرأة. والتمسك بالحجاب لا يمكنه أن يعيش طويلاً بعد تلك النظرة الساخرة التي ترسلها إليه مدنية القرن الحاضر، ولا أدري ما الضرر اذ خرجت المرأة الفاضلة بدون حجاب واذا خرجت العاهرة وهي ترتدي النقاب وأي اشد ضرراً، تلك التي تستتر خلف الجدار وهى كالداء السرطاني الذي يختبئ في جسد العليل لا يدركه ولا يتداركه، ام تلك التي تدعوها سافرة ، وهى واضحة وضوح شمس النهار، تلمح العين قبح اخلاقها او حسن تربيتها ؟

للمرأة عقل كما للرجل، وكذب من الصق بها العاطفة دون العقل، وألا ما حلقت في سماء العظمة نساء كثيرات ولما حكم النساء بجوار الرجال في اكبر الدول شأناً وارفعها مكاناً. فحرام أن يأخذ الرجل من كبريائه صدأ يغشى به عقل المرأة ليغرب خيالها عن ميدانه وكفى ما نعانيه لغيابها عنه من ركود في المجتمع، وشذوذ في العلائق، وخشونة في الحديث. وعقم في التفكير حتى أصبحنا أضحوكة الغرب إذ إننا نسخر من لهوه، ولا يأتي جدنا بجديد. . .

قال: يصعب على من تلدغه الحية أن يشعر نحوها بدافع من الرحمة أو العطف.

- لا عذر لك فيما فعلت،

انك تريد أن تنتزع العطف على قضيتك من كلمات كتبها بعض المتشددين المتنطعين الذين يغالون في الدين وهي في الحقيقة لا تنفعك وللأسف أن دعوة، هؤلاء المتشددين تصادف هوى في نفوس أمثالك للتتحول عن الحقيقة.

لم يحرك شفتيه بكلمة، وكان جوابه ناطقاً في عينين ساهمتين، ورأس يهتز باستخفاف، فتركته ينصرف وبه ما به من جمود وأويت إلى فراشي وبي عجب من نفس لو حادثتها حتى تشرق الشمس مرة ثم مرة فما هي بنازلة عما هي فيه من غروب وأفول.

(10)

جثة بها روح

لم يعد يستطيع تحمل ما يشغله منذ أيام، إن الموت يسري في أعصابه تدفق ماء عند نبع متجمد، الأرواح من حوله تتراقص، وهو يتقلب في فراشه تقلب المحتضر على سرير الموت، أنفاسه تتصاعد منقطعة وخفقات قلبه تتصارع، شعر بصداع قوي كأن ضجيج العالم كله داخل راسه الملتهب، حاول ان يغمض عينيه ويستسلم لسطان النوم، ولكن السؤال يأبى أن يخرج من ذاكرته.

وأصر أن يمنعه من النوم رغم أنه بأمس الحاجة إليه، وكيف يأتيه النوم وقد تجرع سؤالا علقميا في كأس صدئه ولى وجه إلى جبل تصدع وانهار.

اين من انت؟ سؤال أعاد الروح إلى ذاكرته بعد أن كان مدفونا بين بقايا أنقاض أيامه وجعله ينفض عنها غبار النسيان،

حاول الدخول في السنين المنسية ليتذكر شيئا من أيام الطفولة، حاول قطف زهور الذكريات ليطرد بعبيرها الرائحة العفنة التي تبعثها أشباح ذاكرته المفجوعة.

اين من انت .. سؤال لم يعد يريد سماعه يضغط براحتي كفه على رأسه بقوه، ولكن مادخل رأسه.. هو الآخر يئن لحاله ويبحث عن متنفس يرمي من خلاله كوامن بركانه المعتلج.

تجتاحه رعشة توقظ أوصاله، ينهض من سرير الاحتضار، يمسح حبات العرق المتناثرة على جبينه المشتعل، ينتفض بصمت، يدخل حجرة أمه الباردة، يصرخ : أمي .. أمي ابن من أنا.. لكنه يتراجع،

يظل مكانه هامدا جامدا كالتمثال، يقترب منها يرى الاصفرار على وجهها، تنظر إليه بأسى وتجهش ببكاء حاد مصحوب بتوجعات ألالمها، تشده إلى صدرها وتضمه بحرارة لم يعهدها من قبل، يرتمي في حضنها رمية اليتيم المنبوذ ودون مقدمات قالت:

- وانا لست امك يا ولدي.

تنزلت الكلمات ويلا من نار حرقت مسامعه، لقد حولته بكلمات قليلة إلى جثة بها روح نهض من حضنها بهدوء ورجع أدراجه إلى الوراء مذعورا واخترق الباب باحثا عن مكان ما.

(11)

فلسطين كمان وكمان

كان هناك شخص أصلع ممتلئ الجسم يلمع واجهة دكانه. كان قد شمر كمي قميصه عن ساعديه وكان يعمل بنشاط ولكن بغير فرح. وكان المارة بفلسطين - أحيانا بين بقايا الانقاض - بشيء من الملل وبرؤوس منكسة. وفجأة توقف صاحب الدكان الأصلع ليرى مجموعة شبان وشابات من الإسرائيليين ببناطيل قصيرة يسرون متضاحكين ضاجين ضمن موكب الناس الصامت ولدى اقترابهم تناول سطل الماء وجلد المسح ودخل الدكان. وكان هناك رجل وحيد يجلس على ناصية مقهى كان يراقب المارة والسيارات بغير اهتمام. مات الافق في عينيه. لا شيئ يعنيه. حتى منظر الإسرائيليين البشع في الشارع لم يكن ليحرك كوامن نفسه. مثلت له عيناه وجود تلك الوجوه الطارئة، الإسرائيليين كانوا يعتمرون - بشيء من التحدي المعلن عن نفسه - تلك القلنسوات المستديرة التي يشتهر بها متدينو اليهود. تناول الرجل الوحيد رشفة صغيرة من فنجان قهوته، وغاص بصره في السائل الأسود.لم يعد يسمع هدير السيارات ولا ضجيج الاقدام. غاص أكثر. اليهود اختفوا من الشارع. غابت الاصوات البشرية الدافئة. اخذ بصره يجوب الشارع يمينا ويسارا. والرجل الاصلع صاحب الدكان لم يعد له وجود. واجهة الدكان محطمة. الانقاض تملأ كل مكان. مبان رائعة هي صورة حضارة متفتحة وبؤر نشاط سالف تفقر الآن أفواهها، تتدلى أمعاء الطوابق العليا فوق السفلى ببشاعة، شيئ ما حدث فغير نظام الاسمنت والحديد، قلب عالي الدنيا سافلها. قوالب الأبواب والنوافذ تجردت من زجاجها، انحنت في وجيعة. امتزح

الأزرق بالأحمر بالأصفر وتلون الجدران بسواد الحرائق التي انطفأت للتو، فيما تدلت اللافتات الملونة واخذت تئز وتئن كما الندبات.
تطور المشهد المهول. غير الرجل ساقا فوق ساق. أصابع يمناه كلها تشد معا على فنجان القهوة. تعبير رعب على وجهه، ملابسه مغبرة.
يحمل الآن طفلة صغيرة بذراع، وصرة بيد. يركض ويركض بكل ما أوتى من قوة. بكل القوه التي في ساقيه. خلفه غير بعيد تركض امرأته وقد تجمع تعبير الهلع في حفر وجهها، تركض وتلاحقه بنظرها والمدافع تقصف، والطائرات الاسرائيلية تزمجر وتنبعث حممها. جهنم فتحت ابوابها، والناس يركضون وقلوبهم تطير أمامهم.
المسافة بين الرجل وامرأته تتقلص وتتباعد، والاجساد تسبح في الجو، انقلبت هلامية. المسافة بينهما فاصل موت وحياة علاقة حب معلقة بإشارة استفهام زرقاء.

كان الجميع يركضون مذعورين، يلهثون، يتنادون. الكل يسعى للخلاص بجلده، لإنقاذ لحمه وعظمه من تثقيبات الشظايا. وحدهم الرجال المناضلون كانوا متمركزين وقوفا شامخين في زوايا الطرق، حول مدفعهم، يلقمونها ويطلقون، يصلون طائرات العدو نارا حامية، وكأنما لا يعنيهم هدير صام، ولا انفجار ولا شظايا. كانوا قد اجتازوا برزخ الخوف وتخلوا عن قلق الحياة والموت.
يتوقف الرجل ليدفع بامرأته تحت بوابة نصف مهدمة " هنا ملجأ ". لا يعرف كيف رأى الكلمتين المنقذتين " هنا ملجأ " المرأة اندفعت واندفع ورائها. هبطا عددة درجات وجوه مصفرة. وجوه مزرقة، عيون أطفال وسيعة. شعور نساء منكوشة. تعال، تعال. ادخلي، ادخلي. ويوسع الحشد في الملجأ مكانا للناجين من الموت وهم يرددون الصهيوني المجنون.

الطفلة تبكي، تأخذها الأم وتضعها بين ذراعيها، مع كل قصفة مدفع تبكي، ومع كل قذيفة تنفجر ترتعد الأطفال في الملجأ يبكون

ساعات، وتمر الساعات كأنها دهرا، القلوب راجفة، الطفلة الآن ترتعش باستمرار عيناها مالتا إلى الوراء، تنفسها بات متلاحقا، وعيها صار موجة غائرة وسمكة غاطسة في محيط متلاطم، النوبة تستمر.

القصف المتواصل لا يدع مجالا للتأسي في الملجأ المزدحم عيون الجميع معلقة في السقف المنخفض، متى سينقضي عليهم جميعا؟ وعارف أو متعارف يردد باستمرار واذان تلقطان اصوات القصف: هذا قصف طائرة. هذا دفاع جوي. والناس يضمون اولادهم ويستمعون، يرفعون الادعية إلى رب السماوات الذي ترتفع مملكته العظيمة فوق الطائرات

هدير رهيب يقترب. انفجار. اثنان. الثالث هوب! الدنيا تنفجر. ضغط الانفجار يقذف المحتمين بالملجأ على الجدران تتبادل مواقعها وتلتطم كلها بالجدران التي تفتت بدورها. طبقة كثيفة من الغبار تمازج الدم واللحم العاري الذي فقد جلده وتفزر.

الصمت. تساقط آخر الاحجار المهدمة من مواضعها. والصمت. الرجل يتحسس أجزاء جسده. يتحرك، يزيح كتل الاشلاء البشرية والاحجار وكتل الاسمنت ويتحرك. حين ينجلي الغبار تبحث عيناه المختنقتان بقلق. الزوجة. البنت. الصمت. اجساد واشلاء متمازجة. ملجأ الناس صار مقبرتهم.

عاد وحيدا. عاد كما كان حين بدأ حياته موظفا في تلك الوزارة الحكومية الاولى التي اشتغل فيها.

مات ابوه ثم امه فقد ابنه اليافع الذي ذهب ليأتي بالخبز فأردته رصاصة جراء القصف الإسرائيلي. لقد صبوا الإسرائيليين حقدهم المجنون على فلسطين، قنابل عنقودية وفوسفورية وانشطارية. تسميات تذهب بالعقل ترسانة اصحاب العنجهية تحتوي كل مستجدات

أدوات الدمار، كل ما تفتق عنه العقل البشري الخلاق من وسائل الفتك.

تلك اياما عشناها ومازال نعيشها، يموت فيها الناس ويتيتم الأطفال وتترمل النساء وتمتلئ المستشفيات وتزدحم سلال النفايات بقطع الأيدي والارجل المبتورة. سحقا للموت في كل صوره، ولكن رغم ذلك، كانت الحياة تسير والآمال تتجدد بالعودة، كانت المحلات تفتح، والدكاكين تبيع وتشتري وساعة الوصول إلى العمل الثامنة.

سرحت العينان إلى بعيد وقد عاودتهما مسحة أسى، فلسطين يا فلسطين. الزمان الذي انقضى والحياه الحلوة. بهجة العمل وروعة الكفاح. فلسطين التي كانت شعلة ولم تكن لحما، ياله من غياب! هل ماتت فلسطين كما يموت الإنسان وحبة القمح؟ مجبولة أرضها بالحقد ونزعة التسلط، اشتعلت مثلما يشتعل الربيع. ثم خمدت فجأة منهارة فوق الآلام والدموع. اعطت واعطت ثم كبت مثلمة، مكممه، نارقة، ممزقة، فاغرة لكنها ظلت صامدة، ظلت تقاوم.

الرجل الوحيد يتملل على مقعده، يغير ساقا فوق ساق.

يطول به المقام فيما تتغير من حوله وجوه متجهمة، لا احد يتوقع حضوره، لا أحد يستأخر عودته. يجدد فنجان القهوة، جموع أخرى صامته مرسومة بغيم الموت تعبر الشارع وفلسطين تسبح في فلك جديد، ما تنفك عابقة بنفحات مقاومة لم يشهد مثلها التاريخ.

انها تلبث ماتزال فيما المؤامرة عليها مستمرة.

تلاطم الأوهام والرؤى راس الرجل الوحيد، كلا، فلسطين أم العرائس لن تموت، ستظل تقاوم الطواغيت والكهان الملونين، خلقت احلام قدسية، منارات للمهتدين في الليالي الحالكة.

ستبقى الاحلام حية والمنارات متوقدة متوهجة، وستزقزق العصافير لا محالة، وتنور السماء البلورية من جديد.

نهض الرجل، تنفس الصعداء وسار في اتجاه البحر.



(12)

كــوخ الصــفيح

احدي عشر خريفا مضى...
كوخ الصفيح لم يتغير وساكنوه شحبت وجوهم وافتقدت معالمها ....
في الخريف الماضي رحل فتحي .. دفنوه في سفح الجبل كان ذلك صباح عاصف .. السماء كانت سوداء كل شيء كان اسود.
الذكريات الحزينة تعود، يحملها خريفا جديد، الخريف الثاني عشر " لا " ليس الخريف الجديد .. ليس الخريف الثاني عشر الخريف لا يبلي لا يمضي انه نفس الخريف الذي مات فيه فتحي .. هكذا قالت فاطمة ومرارة الأسى تلف قسمات وجهها الطيبة.
الصبح بلا شمس بلا ضياء، الظلمة حالكة .. وقلب فاطمة يدق بعنف يرتعش، الشمعة أيضا ترتعش والعاصفة قويه والسماء، اين السماء؟ السماء لا ترى من الكوخ .
ما أرعبه من صباح بلا شمس
انه يذكرها بزوجها الفقيد.
لقد كان ممدا هنا علي الحصير يحتضر لم تكن انذاك بالكوخ سوي شمعة واحدة لكن الكوخ ابتلعها فقد بدأت تتلاشى وانبعث منها حزمة الضوء الملونة ثم اختفت كما كان وجه فتحي هادئا وحزمة الضوء الملونة تغمره بالظلال والالوان كان أقوي من الموت لقد ظل يحدق الي اعلى . سقف الكوخ لم يكن قويا كنظراته فعيناه لم تنطفئا لقد كان ممددا هنا علي الحصير يحتضر فتحي كان هنا .. فتحي كان هنا ..
ومدت يدها كأنما تتحسس جسمه النحيل فاصطدمت بسالم صغيرها الوحيد انه ينام نوما عميقا. هذه الرعود المجنونة لم توقظه ..

البارحة قبل ان ينام كان يرتعش من البرد وجهه الصغير كان اصفر من زهور الخريف لكنه كان يملأ الكوخ بروحه المرحة الحلوى .. للدموع التي كانت تدور في عين امه اشعلت في عينه احلاما كبيرة فكان لا ينقطع عن الكلام ..
لقد قال لها سأحطم هذا الكوخ يا امي لابني لك دارا كبيرة، أكبر من هذا القرية لكن هذا الكلام لم يزد دموعها الا انهمارا فسالم لا يزال في ربيعه الحادي عشر .. لا بل في خريفه الحالي الحادي عشر،
الناس في اكواخ الصفيح
لا تقاس اعمارهم بالربيع .. انسان الكوخ يعيش خريفا دائما .. ما أطيبك يا ولدي .. انحنت لتحضنه لكنها لا تريد ازعاجه لا تريده ان يستيقظ في هذا الصباح العاصف، يكفي ان تظل عيناه معلقتين به، بوجهه الصغير، بيديه المختلطين بالدهان الأسود، بقميصه الممزق المليئ بالبقع ما أطيبك يا ولدي ..
وادنت حاشيه ثوبها البالي من فمها ثم بللتها وشرعت تزيل من يديده الدهان الأسود فسالم يرحل عن القرية كل صباح الي المدينة ليمسح احذيه الناس ويعود مع الليل منهوكا .. يحمل صندوق الخشب وعليه الدخان الأسود .
العاصفة تشتد .. ما ارعبه من صباح بلا شمس .. سالم تعود ان يصحو في هذا الوقت لكنه الآن غارق في نوم عميق اذن يجب أن توقظه ..
والعاصفة؟ والبرد؟ والظلام؟
لا لن توقظه، الارض مبتلة وسالم بلا حذاء .. انها تخاف ان يقع في ساقيات القرية ولكن ... الكوخ ليست فيه كسره خبز، الكوخ فارغ، ليس هناك سوي حصيره واناء خزفي والباقي جدران وسقف من صفيح حتي الشمعة الأخيرة التي تغالب ظلام الكوخ ستنطفئ انها توشك علي التلاشي ...

هل توقظه؟ ولماذا توقظه؟
في هذا الصباح العاصف إذا ايقظته سيرحل عن القرية سيحمل صندوقه الخشبي وعليه الدهان الأسود ليمسح احذيه الناس في المدينة .. ليطوق المدينة بلا حذاء .. قطرات كبيرة بدأت تسقط من سقف الكوخ المطر ينهمر بعنف وفاطمة تلتصق بصغيرها تحميه من هذه القطرات وشيء اشبه بالباب ينفتح فيصدر صوتا متقطعا كأنين فتحي قبل ان يدفنوه في سفح الجبل وبدأت تتسلل من شقوق الكوخ خيوط رمادي لكن العاصفة لم تهدأ وسالم لم يستيقظ .. الشمعة تنطفئ ووجهه الصغير يغرق في خيوط الضياء الرمادي . تحرسك عنايه السماء
يا ولدي .
لمعت عيناها بوهج من الحنان وهي تتطلع إليه واشرقت شفتاها الكريمتان بأبتسامه أكبر من الكوخ أكبر من القرية كان بإمكانها ان توفر عنه عناء هذا اليوم فهي تغسل ثياب ناس المدينة لكن ناس المدينة لا يغسلون ثيابهم في صباح بلا شمس ، المطر ينهمر اليوم بغزاره وتراءت امامها احواض الغسيل وفقاقيع الصابون و اكداس الاثواب القطنية والصوفية التي كانت تغسلها لناس المدينة في الايام المشمسة، لك الله يا ولدي .
تنظر الي ثياب سالم الممزقة الباليه وتذكرت المعاطف الصغيرة التي كانت تغسلها وتذكرت الاولاد الذين يلبسونها .. انهم لا يمسحون احذيه الناس .
فتحي قبل ان يختفي من الكوخ كان يحمل الحلويات لسالم كلما عاد من المدينة وقتئذ لم يكن سالم يرحل عن القرية ليمسح احذيه الناس أحد عشر خريفا مضي ...
وكوخ الصفيح عمره أحد عشر خريفا، انه لم يتغير رغم الصدأ الذي يكسوه .. جدرانه لازالت قائمه انه لا يزال كوخ الصفيح .. سالم فتح

عينه في ظلام هذا الكوخ لقفناه وقتذاك في صفحات الجرائد التي كان يستعملها فتحي في بيع الخضروات لأهل المدينة فتحي امضي عمره بائع خضر متجول ليعود ذات ليله
الي القرية بلا عربه لقد سلبوها منه اخذوا العربه والخضار ومنذ ايام كانوا سيسلبون من سالم صندوق الخشب وعلب الدهان .. لا .. لن اوقظه سالم في هذا الصباح العاصف إذا رحل عن القرية لن يعود سيسلبونه مني. لا. لا ...
لماذا تصرخين هكذا يا امي؟
لماذا تبكين؟ ألم أقل لك سأحطم الكوخ لأبني لك دار كبيرة .
كان سالم قد استيقظ وصوت فاطمه المخنوق بالدموع كان يرتفع ويرتفع .. ما ارعبه من صباح بلا شمس. المطر ينهمر بغزاره والزوبعة تشتد وسالم يبحث عن الصندوق الخشبي وعلب الدهان الأسود ليرحل عن القرية ...
عيناه الريفية كان فيها طموح أقوى من الزوبعة .

(13)

الروح المفقودة

أتذكر ،أتذكر كما لو كان بالأمس كانت عشية عيد الميلاد وبينما كنت اسير في الشارع كان الجو باردا سمعت سعالا مروعا قادما بين سلة المهملات.
عندما اقتربت من سلة المهملات، استطعت ان أرى رجلا عجوز يرتدي معطفا قديما، ملطخا بالأوساخ ومحشو بالصحف للمساعدة في ابقائه دافئا، كان سرواله قصير ومليء بالثقوب، وحذائه ممزق .
عندما نظرت إليه برهبة، نظر الرجل العجوز إلي ببطء بوجهة الشاحب القذر. كانت عيناه مغلقة كان يربض نفسه ببطء في محاولة للتدفئة مددت يدي اليمنى على امل ان يأخذها نظر إلي
وقال: شكرا لك.
حاول ببطء ان يمسك يدي. استطعت ان أرى انهم قد جمدوا وشققوا من البرد.
ووضعت ذراعي الايسر حول ظهره لمساعدته على الوقوف كان ضعيف جدا وعندما بدا لي انه واقفا اكثر ثباتا، بدأنا في المشي، نبحث عن ملجأ حيث يمكنه الحصول على بعض الطعام الساخن والشراب، ربما بعض الملابس الدافئة ومكان آمن للنوم وبينما كنا نسير على الاقدام، سمعت بطنه تكرر من الجوع.
واثناء سيرنا هذا وجدت محل للطعام ما يزال لم يغلق بعد، دخلنا ذلك المطعم وجلسنا وطلبت من "النادل" وعاء من حساء الدجاج للمساعدة في دفئه مع كوبين من القهوة الساخنة، وبينما كنت جالس

وهو يحتسي القهوة الساخنة، لم استطع إلا ان اتساءل كيف وصل الى المكان الذى فيه الان؟
من اين اتى؟
كان زوج، اب، هل عرف احد من هو؟
الألاف من الأسئلة كانت تتسابق في رأسي.
كما شاهدت له تناول الطعام، يمكن ان أرى بعض اللون يعود الى وجنتيه.
بعد ان انتهينا من وجبتنا خرجنا بحثا عن ملجأ. لم نذهب بعيدا عندما اكتشف الرجل العجوز كنيسة في الشارع راقبته وهو يصارع صعود السلالم ويمر عبر الأبواب الخشبية الكبيرة وفي داخل الكنيسة شققنا طريقنا الى المقاعد واخذنا مقعدا رأيت الرجل العجوز وهو يشبك يديه معا اغمض عينيه، شرع في الصلاة.
بينما كان يصلي، نظرت حولي لأرى اشخاصا اخرين يصلون ايضا كان هناك آخرون يتلقون الشكر.
الشموع مع النسيم الطفيف كانت تتراقص.
الهواء كان مليء برائحة البخور، واصوات جوقة الاطفال بالغناء الناعم تملأ القلب بالفرح
شعرت بأنه يوم مميز كان هذا الاحتفال بميلاد السيد المسيح.
نظرت الى الرجل العجوز ورأيت انه كان يعاني من مشكلة العودة الى الوراء لذا اتجهت الية، لففت زراعي الايسر حول ظهره لمساعدته وعندما كنت احدق بدقة فى كل من في القاعة كان الفرح والسعادة تملأ المكان ،فجأه الرجل العجوز وضع رأسه على كتفي نظرت إليه واعطاني ابتسامة كما لو انه يقول لي شكرا لك، ثم اغلق عينيه وغط في نوم عميق.
بعد بضع دقائق لاحظت انه لم يعد يتنفس، بدا انه في نوم هادئ جدا.

لا مزيد من القلق، لا مزيد من البرد والجوع، لا مزيد من المشاكل، انه السلام العادل
عندما نظرت اليه وراسه لا يزال على كتفي ونظرة سلمية على وجهه،
لم الاحظ ان القس يقترب من مقعدنا ويضع يده على كتفي وعندما نظرت اليه ودمعة من دموعه نزلت على وجهي، أدركت ان الرجل العجوز كان في مكان افضل بكثير.
انني لا اعرف حتى اسمه عندما التقيت به للمرة الاولى.
ظننت انني بساعد نفسا فقدت روحها، لاكنه هو الذي ساعد هذا الروح المفقودة.
اتذكر، اتذكر كما لو كان بالأمس .

(14)

امرأتان

أمام دكان الخضري، وقفتْ شابة، كان أكثر ما يميزّها أنها تلبس قميصاً أبيض.. وراحت تسأل البائع:

"بكم كيلو الخيار؟ بكم كيلو الكوسة ؟"..

والرجل يجيبها.. وهي تطلب منه:

"زن لي من هذا كيلو واحداً، ومن ذاك اثنين.. وهذه الطماطم بكم؟".

بخمسه جنيه يا مدام.

- زن لي منها كيلو واحداً، ولكني أريدها متماسكة للسلطَة!

تناول البائع كيساً، وراح يملؤه من الخيار الرفيع الذي يحاكي الأنامل دقة واستواء، وملأ كيساً آخر بالكوسة الغضّة اللمّاعة التي تغري ربة البيت بحفرها وحشوها.

في هذه الأثناء، توقّفت أمام الدكان، امرأة تتجلبب العبائه السوداء وتسدل على وجهها منديلاً بلون الليل.

كشفت المنديل عن جانب من وجهها، وأخذت تبحث بعينيها عن ضالتها، ألقت نظرة سريعة إلى سحّارات الخُضر المعروضة في مقدمة الدكان، ثم أرسلت ناظريها إلى ما دونها.

لمحت هناك تحت رف الميزان، قفةّ صغيرة، قد جمع فيها البيّاع كل ما تخلفّ عنده من أسقاط الطماطم.. سألته، بصوت خفيض، وهي تشير إلى القفةّ:

"بكم الكيلو من.. تلك الطماطم؟"

نظر إليها البائع، وهو يتابع ملء الكيس بحبات الطماطم المنتقاة للسيدة ذات القميص الأبيض، وأجاب:

"القفةّ كلها.. بثلاث جنيهات !"

- طيبّ، هاتها لي"
من تحت عبائتها، أخرجت المرأة، ذات المنديل الأسود، حقيبة مهترئة، فيما كانت عيناها تتابعان البحث عن.. أشياء أخرى ،لمحت، في ركن من الدكان، قفةّ ثانية، فيها حبات من الكوسة، المكسورة والمشقوقة والمبيضّ لونها.
- وتلك الكوسة.. بكم؟
- خذيها كلها بـ.. بجنيهان!
اهتم البائع بوضع الأكياس الثلاثة في الشبكة النايلونية ، التي فتحت له فوهتها الشابة ذات القميص الأبيض، وترك المرأة الأخرى، التي جلست القرفصاء، تفرغ في حقيبتها ما في القفتين الاثنتين.
كانت السيدة الشابة تتلقىّ مساعدة البائع، وعيناها إلى المرأة المقرفصة: كيف دلقت، في حقيبتها، الكوسة، ثم فرشت فوقها رُقاقة من نايلون كانت معها، وبعدئذ راحت تنقل حبات الطماطم، المبعوجة والمتعفنّة.. والتي يسيل منها ماؤها!
أحسّت الشابة في حلقها غصّة، ودتّ لو تفعل شيئاً من أجل هذه المرأة، التي يبدو البؤس في ملبسها، وفي بحثها عن لقمتها ،ثم في ترتيبها مشترياتها المتعفنّة في حقيبتها الناصلة اللون.
وقبل أن تدفع للخضري ما ترتبّ عليها، اقتربت من المرأة، وانحنت عليها، لتقول موشوشة:
"هل تسمحين لي، بأن أدفع ثمن أشيائك هذه، وثمن كل ما تحتاجين إليه من خضر أنتقيها لك؟"
رفعت المرأة، الكاشفة منديلها عن جانب من وجهها، إلى السيدة المنحنية فوقها، عينين سوداوين، متألقتين، وإن بدتْ حولهما تغضنات حفرتها يد الزمن.. أجابت، وهي تهزّ رأسها يمنة ويسرة، وقد ارتسمت على محيّاها ابتسامة ما:
"لا، شكراً لك، يا بنتي!"

لم تفاجأ السيدة الشابة بهذا الردّ ،لا ولم يخالجها أي شعور بالأسف. على العكس، لقد نزل "الاعتذار" الأبيّ، على قلبها برداً وسلاماً. انقلب عطفها إلى إكبار، و زايلتها غصّتها وكلّ ما شعرت به من المرارة.
قبل أن تمضي السيدة الشابة، وقفت ترقب المرأة، التي أسدلت، الآن، منديلها على وجهها كله، وهي تمشي الهوينى تحت وطأة حقيبتها الثقيلة.
تمنّت لو أنها كانت تستطيع، لحظة تلّقت منها اعتذارها، أن تقبلها من جبينها الوضّاء، من عينيها، اللتين لم تشفّا عن أيما أثارة من ذلّ البؤس أو الانكسار، بل كانتا متألقتين بالكبرياء، وبمضاء العزم على اجتياز اعباء الحياة بالاعتماد على النفس وحدها.
وأحسّت أنّ شيئاً ما، ساخناً، يترقرق في عينيها.

(15)

اشباه الناس

فوق صدري المطعون تتكدس ثلوج العالم؛ وفي قلبي الممزق بركان يقذف اللهب .. و الناس من حولي ، في قلبي يعيشون في جحيم البؤس و العذاب ...
وتهب في كياني عواصف الرأفة بالأنسان ، فلا أشعر الا بسكين حاده ، حاده ، تعمل في تقطيع أعصابي الموجعة وتقدمها حزمه داميه الي البائسين وويل للكاتب الحر اذا غفل عن احراق دمه ٬ بغيه انتشال البشر من الجحيم .
هناك الجلاد القاسي ، العملاق الذي لا يرحم . هناك الضمير .. الضمير الذي يقوض دعائم الاحرار ...
آه أيتها النجوم الفتيه تسع بين سجوف الظلام ، و التي تعتصرها ألام التمرد ... وآه للبشر الذين يغطون في سباتهم وشمس الصباح تسطع كوجه الحرية ...
مالك يا بلبل ثائرا .. قد ارادوا ٬ لك الصمت و احاطوك بسياج من فولاذ .. لكنك سخرت من إرادتهم وخرقت ذلك السياج ..
هم يطلبون منك أن تغني كما يشتهون كما تشتهي قلوبهم الصخرية و احساساتهم البليدة ولقد حاولوا ألوف المرات أن يعتصروا حنجرتك ان يعكروا نبع غنائك ليلبسوك شخصيه عنك غريبه ...
لكن هؤلاء الصعاليك جهلوا أن الغناء شئ من كيانك بل كل كيانك هم يجهلون أن غنائك يا بلبل يحاكي أريج الزهور ويشابه طيران الفراشة وخفق أجنحه النحلة ...

تعالي ، يا بلبل ، تعالي ... يا قلبي الخفاق في صقيع هذا العالم ...
أنا مثلك أيتها النار ، أذيب رغباتي في اعماق أضلعي و أتعالي شامخا بجبهتي حتي أطاول السماء ..
شعله أنا ... أتوهج عاكسا كل مرامي الوجود في بحر ضميري فأرادني الزمان أن اكون كما يريد .. فصفعت الزمن لأني لا اريد كما يهوي بل كما يرضاه ضميري ...
انا أنشودة البراكين و ألحان العاصفة ...
سأحرق بشواظي أكداس الحشرات وجحافل الديدان ..
أنا سطوع الضحى وحولي عيون الفاجرين وضمائر كالمقابر وقلوب كمناجم الفحم ...
في قلبي رماد .. وفي قلب هذا الرماد جمره لا تنطفئ مدي الحياه ..
أيها الغول الراقص علي قبور الضحايا .. أيها الوحش الذي لا يلعق الدماء الا في محاجر الشهداء وجماجم الموتى .. آه .. أيها القرن الحادي و العشرون يا مقبره الضمائر و النفوس ...

أريد أن أ عيش انسانا .. انسان يتحدى الأفاق بجبهته الصارخة المشرع في وجه الغيوم و القدر .. لا مجرد آلة صماء .. لا مجرد لقمه قذره و خطوات سوداء تنزف ألف معني من الذل و أحتضار النفوس ..
أريد .. ولكن الحشرات لا تريد .. سأسحق بعنف أبالسة الاطماع ... هؤلاء الذين لا يتورعون عن بيع نفوسهم اللعينة في سبيل اقتناص بريق لمظهر خداع .. هؤلاء أشباه البشر عناصر الشر أصنام الفساد رعاه القطعان الضالة .. المضللة ...
ولكنها نفسي .. نفسي الثائرة نفس الشيطان التي لا تطيب لها الحياه الا في اعماق الاعاصير فتعارك زمجرات الريح وثوره العاصفة ...

أيها الناس .. يا أشباه الناس يا مهزلة الوجود وسخريه القدر .. يا من جعلتم من ضمائركم الملطخة نعالا .. تلبسونها في سبيل الوصول الي غايتكم الدنيئة .. يا من قرتم صفات الانسان المثلي في بؤر الوحل والعفن للتربع علي عتبه مركز زائف ومجد حقير ..
أيها الناس أشباه الناس يا من تجرجرون أذيال دناءتكم الكبرى وقد تطرزت بألسنه الأفاعي ومكر الثعالب .. انكم لتستحقون الحرق وانتم أحياء ...
كم مره نظرتم شذرا الي ذلك الكاتب الثائر ذلك الكاتب الذي داس تقاليدكم الخرفاء وهدم بمعوله اصنامكم الجوفاء حيث تتمرغون رعاعا تحت قواعدها الموغلة في اللؤم و البربرية ...
أيها الناس أشباه الناس يا من أغلقتم أبواب قلوبكم المهترئة تجاه ألام المعذبين أولئك الذين يطويهم الموت ساعه .. ثم يعود نادما ليذرهم حانقا في الارض الجاحدة لوعه وأسي ووصمات عار في جبين حضارتكم الكاذبة ....
كن وحشا أيها الانسان .. كن وحشا مفترسا هائجا من وحوش الأدغال فالحياة في عصرنا المهوس لا تستكين الا للوحوش المتنمرة انزع نحو التحطيم .. تحطيم كل ما يعترض سير انطلاقك المبدع ..
وان لم تستطيع اخماد بركينك الثائرة فحطم حينذاك نفسك .. حطمها ، حطمها ..
وارقص جريجا منتصرا علي اراده القدر وعلي حضارة العرف البشري المهلهل ....
كن وحشا ايها الانسان ... افترس احكام الزل مزق اغلال العبودية
كن قويا عاصفا .. كن سيد الشرائع لا عبدا ذليل لها ...
كن متشككا بكل شئ في الوجود لا الشك مفتاح المعرفة مفتاح اليقين

انزع الطيبة من قلبك ، انزعها .. انزعها لئلا يستغل الاشر نبل طويتك فتروح مطيه مغفلة لمأربهم الشخصية ما لكون أضحي بؤره عفنه للجراثيم المؤذية و الجيف النتنه ...
كن وحشا من وحوش الأدغال و الا افترستك الذئاب و الثعالب و الغربان ... و امتصت دمائك أسراب الديدان و الحشرات البشرية .

(16)

الحماقة والندم

وكلماته تداعب أحلامهم القابعة في زوايا النسيان:
- أنا ظلكم الذي يناجيكم ..أنا الرأس التي تحمل
أفكاركم، وترسم لكم معالم الغد ..أنا الوعاء الذي يجمع شتات أحلامكم ..أنا انتم وأنتم أنا.
ومن جديد تعالت الاصوات: بالدم.. بالروح نفديك يا (س) .
حاولت أن اخمد تلك الأفكار المندفعة في رأسي، قاومت ..قاومت ولما فشلت اندفعت وسطهم وأنا أتحسس المسدس في خاصرتي..يزداد الحماس ..صراخ..هتافات ..تلويح بالأعلام وصوره ..كنت خائفا مرتبكا .. كانت الافكار تعدو في كل الاتجاهات ..انطلقت أمشي بخطى ثابتة وئيدة، ازدادت سرعتها مع تسارع دقات قلبي ..خطوة ..خطوتان ..ثالث ..دفعت الرجل الذي كان يحجب الرؤية عني أخرجت المسدس وصوبته باتجاهه، وقبل أن أضغط على الزناد وجدت نفسي محاصرا بعشرات المسدسات والرشاشات، وأوامر بإلقاء المسدس والانبطاح على الارض.ينطلق هذا الصراخ المنزوي في داخلي..هل كان علي أن اقتله؟ ساعتها لم تكن الامور بهذا الوضوح .. بهذا التجلي ..عندما أتمعن الان فيما جرى أجد أن كل شيء كان وهما .. وهما..وهما. فقط لو أعطوني الفرصة حتى أشرح لهم ..أفسر لهم كيف حدث ذلك، وأنه لم يكن أمامي خيار، وأنني كنت مرغما لأنه لم يكن ممكنا أن استمر في التشبث بأحلام لا تتحقق ،تضيع في ذاكرة مفقودة، لم أكن أقدر ساعتها التعايش مع هذا

العبء . أعترف أمامكم سادتي أن محاولتي كانت محاطة بكل إخفاقات الدنيا، لكن ما عساي أفعل وقد سكنني اليأس وسيطرت علي الافكار المبهمة التي دفعتني لمثل هذه الحماقة!! نعم سادتي أعترف أنها كانت حماقة.لكن لا أحد اهتم بما أفكر أو سألني عن دوافعي، كانت كل الاسئلة عمن يقف ورائي، وما هي الجهة التي انتمي إليها وأي جهة زودتني بالمسدس والرصاص ..وعندما أخبرتهم أنني اشتريته من السوق المجاور لبيتي، انطلق صوت صفعة يمزق صمت المكان ..سقطت على الارض وأحسست بشيء يتدفق من فمي وأنفي ..ورغم هذا ابتسمت.. ليتأجج غضبهم ..هل حقا لا يعرفون أنني أقول الحقيقة، وأن في أسواقنا يباع كل شيء .. قطع غيار السيارات .. مخدرات .. عطور ..أدوية ..مسدسات ..رشاشات ..عملة مزورة، وكل أنواع العقاقير، لمختلف أنواع العجز كانت الغرفة شبه مظلمة ..باردة، خالية من أي أثاث غير كرسي ومكتب عليه مصباح كهربائي يقاوم نوره الظلام.. يتناوبون في الدخول والخروج ..في طرح الاسئلة الملغمة، والصفع والركل، وكل أنواع السب والشتم. كانت لا مبالتي تصنع جرأتي، وتصنع أسوء لحظات حياتي. بعد أيام وجدت نفسي داخل زنزانة مع مجموعة كبيرة من أصحاب اللحى الكثة والنظرات العدائية في البداية عاملوني بالكثير من الاحترام وأحاطوني بهالة من التوقير والتبجيل وقد توصلوا لمعرفة جرمي، وحاولوا استمالتي ،بدعوتي للأكل، أو حضور إحدى جلساتهم، أو قراءة كتبهم، وأمام رفضي واشمئزازي صدر القرار بعزلي وتحريم مجالستي وتجريم كل من يعصي الاوامر كانت حلقاتهم لا تكاد تنتهي واحدة حتى تبدأ أخرى .. يتحدثون عن التكفير.. الجهاد ..الامارة ..والولاء ،تبا لهذه الكلمات الباهتة المعالم ،تبا لهذه الافكار التي بقدر ما تدفعك للفضول تدفعك للنفور ..في هذه الزنزانة التي يسمونها جناح الارهاب عرفت أنه يمكن أن تفقد عقلك، أو أحد أطرافك، وحتى

رأسك لمجرد اشتباه، لمجرد اختلافك معهم .. قد تموت، لمجرد أنك فقط لا تؤمن بأفكارهم بتفجير دبابة أو حتى طائرة لو أحسنت التصويب .. هنا مثل هناك، شهوة السلطة تسيطر على العقول الخاضعة كما يسمونها هنا)ضوابط ويسمونها هناك انضباط. كانت الافكار كالجراثيم تأكل رأسي تحول آهاتي إلى صرخات ..الكوابيس تصنع مأساتي داخل هذه الحجرة، تلك الاشباح التي تسحبني كل ليلة من فراشي، إلى هوة سحيقة ..يشقون صدري، يسكبون سائلا بلون الظلام، ثم يخيطون صدري بأسلاك، يضحكون، يضحكون ..يضحكون ..يضحكون، غير عابئين بصراخي، وفي كل مرة افتح عيني بتردد .. »هل كنت أصرخ؟.شفتاي ترتعشان ..جسدي غارق في العرق ..أختلس النظر من حولي .. حرب هنا ..حرب هناك.. سلطة هنا..سلطة هناك..سطوة هنا ..سطوة هناك، وأنا المشرد بين هذا وذاك، وأنا العائم وسط بقايا حطامي أبحث عن لقمة تقويني ..عن جدار يسندني ..عن قلب دافئ يتحملني ويحميني، أصرخ ملء صوتي وقد تحول رأسي إلى فراغات رغم محاولتي العديدة لملئه، مستنجدا بالتذكر ..وماذا بقي لي داخل هذه الفراغات غير التذكر ..غير هذه الاسئلة التي تنخر عقلي وتوقظ مشاعري المخدرة.هل كان علي أن أقتلها؟لحظة اكتشفت أنها مجرد حلم، استفزتني الحقيقة الماثلة أمامي بجلاء، هي لم تكن تحبني لابد أن أعترف أن الامر أكبر من هذا، لم تكن تحس بوجودي رغم محاولتي العديدة لاستدراج نظراتها، لكن ما عساي أفعل كان الحب ينهش قلبي والخيالات تغذي آمالي ..أحلامي الجميلة ..أعترف أنني كنت أمارس الكذب للترفع عن واقع متدثر بأعباء الحقيقة .. كنت أحتاج منها لحركات ..لنظرات ..لابتسامة ..لشيء يحسسني بانتباهها لي، لكنها كل مرة تتفحصني بنظرات باردة، ثم ترتسم على شفتيها ابتسامة تؤجج الغضب بداخلي وهي تبتعد بنفور..هل كانت تحبني؟..وأن المشكلة في عواطفها غير

المكتملة؟ أم هو مجرد خضوع لغواية عواطفي الجياشة المدفوعة بأحلام متسارعة تغذيها توقعات سعيدة.تباغتني الاسئلة لتمدد في زمن الحلم، الذي ظل يراودني ويصنع يومياتي الجميلة، في البداية كنت أسخر من تلك الاحاسيس التي كنت أراها سخيفة، لكن مع مرور الايام بدأت صورتها تسيطر علي، تنسج من حولي لحظات العمر الجميل ..كان علي أن أتوقف عن الركض خلف تفاصيل وجهها الملون بالتعابير، أن أوقف دوران الزمن في مدار حياتي، وأعيش اللحظة دون البحث في المرايا ..أن أعشقها كما هي امرأة من نور ونار ..كنت ممددا على فراشي، سابحا في أفكاري عندما أحسست بحركة قربي، فتحت عيني ووجدت شابا واقفا أمامي بلحيته المزروعة في وجهه بشكل سيء ووجنتيه الحادتين وعينيه الضيقتين المملوءتين بالقلق والتردد، كانت شفتاه تتحركان دون كلام ،نظرت إليه بنظرات جامدة خالية من أي مجاملة وقلت له وأنا أضع قبضتي على الارض أهم بالنهوض:

-هل تعرفني؟

ارتبك..تراجع، وعاد إلى جماعته الذين كانوا يتابعون المشهد وهم يتهامسون بشيء لم أتبينه كنت تعبا، فعدت للتمدد غير عابئ بالضجة التي ازدادت من حولي .. واستسلمت لهذه اللذة الجميلة بعد أن سحبت الغطاء على كامل جسدي، وأغرق في هذه الكومة من الافكار الموشحة بالذكريات ..كانت يدي ترتعش وأنا أرسم خارطة وجهها الممتلئ .. عيناها الواسعتان العسليتان ..أنفها الممتد وسط وجهها بكل تفاصيله الفرعونية ..شفتاها الممتلئتان الشرهتان ..رقبتها البلورية والمستنفرة لجميع خيالاتي، وهذا الشعر الاسود الناعم المتماوج على كتفيها..هل كان علي أن أقتله؟ أن أقتلها؟.. أن أقتل أحلامي؟ساعتها لم تكن الامور بهذا الوضوح .. بهذا التجلي ..عندما أتمعن الان فيما جرى أجد أن كل شي كان وهما ..

وهما..وهما.كانتالساعة تشير إلى السابعة في ذاك الصباح الخريفي، الجو غائم، قطرات من المطر تتسلل ببطء وعلى فترات متقطعة معلنة عن بداية يوم ممطر، كنت أجلس في المقهى أرقب من خلال النافذة الزجاجية الكبيرة الشارع وتحديدا تلك الزاوية التي تظهر منها كل يوم في طريقها إلى العمل، أشعلت سيجارتي الثانية، ورحت أرتشف ما تبقى من قهوتي دون إحساس بما يدور حولي، كان الضباب يخيم على الطرقات ..الوجوه تظهر بألوان خريفية .. ما أجملها، كل شيءفيها يصنع دهشتي، هاهي تمر على مقربة من المقهى.. كانت ترتدي معطفا من الفرو، وتنتعل حذاء بكعب قصير، تخبئ رأسها وسط تلك المظلة التي تحميها من قطرات المطر ..اندفعت بحركة هستيرية إلى الخارج مصطدما بالطاولة وبأحد الداخلين إلى المقهى،
ورحت أسير وراءها كأبله، أضع على شفتي نصف ابتسامة تصنعها تلك السعادة المتفجرة في داخلي ..كنت وأنا أتبع خطاها أنسى كل المآسي والمهانات ،ويتملكني فرح طافح وسرور عجيب، التفتت ..نظرت إلي بنظرات هازئة، ثم أدارت لي ظهرها ومضت في طريقها، كنت أحتاج فقط لبعض الشجاعة لأخبرها بمشاعري ،بهذا النبض المتوهج في داخلي، بهذه الحمى العجيبة التي تضيع فيها لغتي وأنا أحدثها دون شفاه، انتبهت على صوت منبه سيارة توقفت على جانب الطريق.. أحسست بالغليان في دمائي، وبفورة غضب تجتاحني تدفع بقدمي نحو هذه السيارة الملعونة، لكن فجأة انطفأ كل شيء واعترتني موجة من الذهول وأنا أراها تلتفت مبتسمة تمتد يدها تفتح باب السيارة وتختفي داخلها، وبسرعة تتلاشى مثلما ظهرت ..أحسست برعشة تجتاحني لم أكن أدري أهي بسبب البلل الذي تسرب إلى جسدي ..أم بسبب ضياع تلك الاحاسيس التي كانت تمألني، وتصنع دفء أحالمي .. وأول مرة أحسست بقدم ضخمة

تدوس على كبريائي، وبخنجر صدئ يطعن كرامتي، وبقدمي تلامس قعر هذا الجب الذي سقطت فيه .. قفلت راجعا إلى بيتي أمد على الطريق التي غسلتها مياه الامطار، خطى واهنة لا تكاد تحملني ..الشارع بال آخر، وكل الناس مجرد هياكل تمر بجانبي، أو تخترقني كأشباح..ارتميت على فراشي ..ضممت ركبتي إلى صدري ..ودفعت بظهري إلى الحائط أحتمي من تلك البرودة التي سرت إليه، واجتاحتني موجة من البكاء ..هي لن تكون لي أبدا ..هي امرأة صنعها القدر لحلم آخر في زمن آخر.امتد اللغط من حولي ،نبهني من غفوتي ،نظرت حولي، كان الجميع في حالة هيجان ..تكبير عناق حار ..هتافات بشعارات، تمجد الحياة والموت..كان باب الحجرة مفتوحا في غير وقته ..السجان يقف في الرواق يمسك بحزمة من المفاتيح ،غير مبال بما يحدث في الداخل ..نهضت من مكاني متجها نحوه، وبكلمات مختصرة أخبرني عن صدور عفو من هناك يسحبنا من هذه الزنزانة إلى سماء مشبعة بأنوار الصباح الربيعي ..تنفست بعمق، لكن دون فرحة تنسيني أحزاني ..انطلقت عبر الطريق، أفكاري تسابق خطواتي بحثا عن حل للخلاص من هذا الوضع الذي أتعبني كثيرا، أحس بثقل في ساقي، الخوف وحده يمدني بهذه القوة لمواصلة الجري ..علي تحريك ذهني ..البحث عن أفكار تخرجني مما أنا فيه، حتى لا أتلاشى في متاهات هذا الزمن الموبوء.الحر شديد .. هواء المروحية التي تدور من ساعتين دون توقف ودون أن أحس أنها تلطف الجو يعبث بالستائر البيضاء للنوافذ الزجاجية المفتوحة والتي يتسلل منها أصوات أبواق السيارات ..باعة الرصيف الذين لا تهدأ أصواتهم المختلطة بصوته المنبعث من التلفزيون ..كنت أتابعه بأفكار مشوشة .. أتابع حركات شفتيه ..حركات يديه التي توحي بالثقة، ترتفع من حوله الايدي ملوحة بصوره و الاعلام الوطنية ..يزداد الحماس من حوله ..صراخ ..هتافات.. تلويح بالاعلام

والصور.يردد الجميع: عيش ..حرية ..عدالة اجتماعيه.تتعالى الاصوات من حولي .. تتزاحم في رأسي ..صوته.. أصواتهم ..صوت أبواق السيارات ..صوت الباعة..استلقيت على الارض محدقا في هذا المدى الممتد حولي بعينين نصف مسبلتين أجر أفكاري الكسيحة ..أحسست بآهة معذبة تنطلق من داخلي، وبضحكة حبيسة ترجسدي، وبيدي ترتفع لترسم على صفحة الفراغ .

(17)

الشمس الحارقة

لأول مرة يشتهي أن يرى السماء مغطاة بالغيوم . خمسون سنة قضاها وهو لا يدري ان السماء الزرقاء تحمل له كل هذه المناجاة .. وقد تؤدي الى هلاكه .
وأحس الرجل بوطأة الشمس فأخرج منديله وعقد رقبته
و منذ قليل كان قد تخلص من سترته فرماها أرضا وتابع سيره
واحس عندئذ بالثقل ينزاح عن جانب من ظهره. وتطلع حوله فاذا كل شيء يشير الى نهايته المحتومة . ابدا، لم يخطر بباله أن الصحراء دنيا يمتزج فيها السحر، سحر الحياة الفسيحة اللانهائية، وقسوتها معا .
وفتش الرجل عن وسيلة تنقذه من مصيره فلم يوفق ، وراحت عيناه تبحثان عن معالم قرية او اي شيء يدل على وجود بشر، على بعد معين منه ، ولكنهما ارتدتها اليه خائبتين وقد مات الأمل فيهما وانطفأ كل رجاء .
سار يمينا ويسارا و سار الى الأمام والى الوراء ، ولكن دون جدوى .. وخسر ساعتين بلا مقابل .
سيارته السوداء الصغيرة التي خلفها في جهة ما، كانت ما تزال تبدو لعينيه . أن ظهرها يتوهج تحت أشعة الشمس . الشمس محرقة ، محرقة . انه يحس بها وكأنها جالسة تسريح فوق رأسه ..
وبدات انفاس الرجل تتلاحق كقطيع من الحيوانات اصابها الزعر والتعب . وراح يلهث بصوت مسموع .اين؟ أين تقع دنيا الناس الذين ينعمون بالماء والظلال الوارفة ؟
دارت عيناه في كل الجهات وبحثتا عن معالم كائنات مثله .

ولكن ، لا شيء ينم عن وجود مثل هذه الدنيا على سطح الأرض .
وتطلع الرجل الى السماء فاذا هي شديدة الزرقة . الشمس
لا تستريح فوق رقبته ، ولكن الوقت ما زال مبكرا حتى تنحرف .
الساعة الثانية تماما ، والأمل ضعيف بنجاته من قسوة هذا العالم الرحب الذي ضل فيه.
وقواه بدات تخور . سيارته التي تعطلت عن السير ما تزال تلوح لعينية من بعيد كصرصار اسود لامع يدب على وجه الارض بحذر شديد .
هل يعود الى سيارته ؟
وبدأت شجاعة الرجل تخونه . كانت شجاعته تتسرب من عينيه وانفه وقدميه . يداه فقط كانتا تحتفظان بقوتهما وسوف يخلع بهما قميصه . قميصه ثقيل جدا . ورأسه ثقيلة ايضا . ونزع الرجل قميصه بعصبية عشوائية .. ثم تابع سيره وهو يفكر : لماذا لا ينزع راسه ويرمي بكل اثقاله جانبا .. دفعة واحدة ؟!
ضجت في حلقه ضحكة، ولكنه خنقها بشدة وعلى الفور.
وعندما تصور نفسه بعد ساعة .. ساعتين .. سنة .. اخذت الضجة في حلقه بالخفوت، وتحولت تدريجيا الى نغم جنائزي : كهذه الدودة الصفراء التي تلوت تحت بصره وهي تتوارى خلف كومة من تراب .. معبره . ستنبت في جسده مئات كهذه الدودة . سيتحول الى دود يدب على ارض الصحراء . أليس مؤسفا للغاية أن يلقى مصيره المقرف
على مرأى من سمائه ؟
من سمائه الزرقاء الصافية التي طالما أحبها .. ونشد رؤيتها؟
وتجهم وجهه من شدة الألم ...
انه لا يحب الوجوه المتجهمة التي لا تثق بالمستقبل وتخفي وراء ملامحها القلق واليأس، ولكنه الان فقط يشعر بانه كان يظلم تلك

الوجوه .. فانقلبت كراهيته لها حبا جارفا، وتمنى ان تحيط به من كل جانب . انه الان واحدة من تلك المأسي التي تتبدى وجوها متجهمة ولا تعرف غير القلق واليأس والموت .
وراح الرجل يلهث كقطار نفد وقوده وهو يقطع طريقا جبلية
وأحس بانه ضعيف .. ضعيف جدا . لكم خيل اليه انه اقوى من القوة نفسها .. هناك ، في المدينة ، حيث يمارس سلطته على الاخرين عندئذ، تراءت لعينيه صور شتى من مدينته ، وشاهد افواه الناس من حوله تتسع لتلعنه في صوت واحد :
يأيها المرابي القذر
انك ستموت في ذات يوم . ستموت ككلب ضال، قبل الان لم يفكر بموت الكلاب الضالة .. فما أشقاها اذن عندما تموت!
ورفع الرجل عينيه الى السماء فوجدها لامعة كعين كبيرة غالبة الشمس لم تعد محرقة ولكن قواه تبددت تماما، يداه ايضا لم تقدر على الحركة. كل شيء حوله كان يشده الى الأرض .. فتهالك على الرمال الصفراء الأزلية واسند رأسه الى ساعده ولم تعد تترامى لعينيه صور مدينته .. ولا الأفواه المليئة باللعنات .
حتى الصرصار الأسود اللامع كان قد اختفى في مكان ما .
ونام بضع ساعات وحشرة صغيرة دبت فوق جفنه وايقظته، لم يفتح الرجل عينيه .
تمنى أن يكون في حلم ! ولكنه عندما تلمس بطريقة لا شعورية قواه وجدها كاملة ، لم يعد الأمر على جانب كبير من الخطورة . المهم عنده هو أن تحمله قدماه الى ابعد مسافة ممكنة ، وحتي يعثر على دنيا الناس الذين ينعمون بالماء والظلال الوارفة .
ولن نخذله قدماه عندئذ هب واقفا . فتح عينيه وعب بهما دنياه الجديدة .
ياللهول والحيرة . الى اين يمضي؟



الطريق لم تكن واضحة . أنفاس النجوم الضئيلة لا تقوى على اختراق حجب الظلام الكثيفة، ترى هل تغطى الغيوم وجه السماء بعد فوات الأوان؟
أحس الرجل بيد قوية تقبض على قلبه، فجلس ثانية على الرمال وحاول النوم : غدا ستعود الى السماء زرقتها من جديد .. وستكون الشمس محرقة، محرقة ..
وتشابكت امام عينيه ألوف الديدان الدقيقة الصفراء .. تدب على وجه الأرض...

(18)

معانـاة فلاح

- إلى أين أنت ذاهب ؟
- لا اعرف بالضبط أين أذهب أو ما ذا أفعل .
خلف سالم قريته وراءه وسار بخطى وئيدة على الدرب العريض، كان ذلك صباح يوم من أيام سبتمبر والأرض مقفرة جرداء لا حركة فوقها ولا نشاط في ارجائها والسماء خالية،
لا غيوم تسبح فيها ولا طيور
ترفرف في مداها . والأشجار تساقطت عنها ثمارها القليلة التي حملتها هذا العام .
وحين نظر إلى هذا الجو الذي يحيط به، حول عينيه عنه وخشى أن تزداد كآبته
وحزنه، فهذه الطبيعة تعكس إلى حد بعيد صورة نفسه وآلامه، منذ ثلاثة أشهر، ولعله أيقن، للمرة الأولى في حياته، أن الخريف فصل قائم حزين..
وتطلع إلى السماء فرأى الشمس و قد قطعت شوطا في سيرها، فردد في نفسه وهذه الشمس .. كيف يعبر عن كرهه للشمس ومقته لحرارتها، لو انها لم تكن قاسية هذا العام إلى ذلك الحد .. إذن لبقى له شيء من محصول القمح، شيء ضئيل على الأقل، ولكنه قد يقوم بأود الحياة على كل حال، ولكن الشمس اطالت، هذا العام، استكانتها على ارضه، واكتست السنابل الصغيرة باللون الاصفر منذ يقتها الأولى، وسرعان ما غدت طعاماً للبشر ..
أما الشتاء فكم كان قصير .

لم يستمع فيه إلى دوي الرعد، لم ير المطر يهطل غزيرا مدرارا، وأناة خلال شهر يناير الطويل، على الأرض المزروعة، نقطة في أثر نقطة، وقطرة في أثر أخرى. لقد سكن مارس فلم يقصف ببرده ولاعصفت عواصفه .
كيف تقسوا السماء ، وكيف تبخل الطبيعة هذا البخل ؟!
- اللهم اجعل صيفنا صيفاً ، وشتاءنا ثناء ..
مشى سالم في الطريق المستقيم، والذكريات تمور في نفسه كانت أرضي عطشى،
وحبة القمح في باطن الأرض يبست من الظمأ .. وفي القرية الجدباء نفق قطيع الخرفان كله، كيف تسمح السماء بمثل هذا ؟
أن رجليه تبدو له ثقيلتين،
حين يكون المر «غاية، فان جاذباً قوياً يشد جسمه نحوها ؛ أما هو فلم يكن يدري إلى أين يتجه، انه يشعر بثقل هذا الجلباب الأصفر الذي يلتف به .
في السنين الخصبة يعج هذا الطريق بأصوات السيارات ، ذاهبة وعائدة وهي تحمل المحاصيل إلى المدينة. أما اليوم مأقل السيارات التي تمر، وما أندر الأبواق التي تزمجر ..
كان من عادة سالم أن يقصد سوق المدينة، كل عام، بعد انتهاء الموسم، فيشتري حوائجه، ويحملها معه ذخراً للشتاء ، وكان يرى في أسواق المدينة معظم أبناء قريته وسكان القرى المجاورة ؛ وكل منهم يتأبط رزمة من قماش
ملون وكعك وحلوى وشاي وسكر ، وأحذية للنسوة وأخرى ، الأطفال . ما عساه أن يرى في السوق هذا العام ؟ سيجد البائعين في الأسواق الطويلة

المسقوفة متربعين أمام واجهات المخازن وقد أكل القحط ريعهم، والفلاحون، يمرون أمامهم، والشوق يلتهب في عيونهم وينهش أعصابهم .
حين ينحبس المطر ...
منذ يومين قصد القرية المجاورة وهو يسوق بقرته
وحمارة الأبيض،
هل يدفع القحط بالانسان إلى أن يأكل صديقه ومعينه؟ ولكن يا إلهي كيف يتدنى من البقرة إلى هذا المقدار ؛ ألا يمكن أن تباع البقرة إلا بنصف ثمنها ؟
قال سالم وهو يحول نظره عن البقرتين و الحمار : «فليكن .
في أحد جيبيه الآن المال وهى ثمن حيواناته ، وها هو يحمل ويدخل المدينة وعاد إلى سمعه صوت جاره...
إلى أين تذهب؟
حقا إلى أين أذهب؟
كيف يستطيع جدب الموسم أن يشتت سكان القرية؟
ما أعرض الآمال التي كانت معلقة على هذا الموسم!
منذ حوالي سبع سنين مرت على القرية سنة جدباء قاحلة ، فباع عمه بقرته والمحراث، ومضى إلى المدينة، وهناك اشترى عربة صغيرة
وميزانا...
كان يبيع البطاطا في الشتاء ، الفول وانواع التسالي في الصيف .. وهكذا ودع حياة الزرع والحصاد إلى الأبد ..
وتخيل سالم نفسه بائعا ينادي على الفول وانواع التسالي أمام الحديقة الكبيرة ودور السينما، فشعر بغصة في حلقه .
كم يصعب على الإنسان أن
يغير عاداته ، ثم أين هذه الحياة الرتيبة ، حياة



البائع الذي يقف منذ الصباح حتى المساء وفي الربيع والخريف إلى جانب
ميزانه، من حياته هو؟ أن له في كل موسم نكهة جديدة، . هي الحياة في الأرض متجددة أبداً متغيرة دائما . حبة صغيرة ثم سنبلة خضراء ثم صفراء ، ثم حبات صغيرة .
أين طعم البطاطا من طعم حبة القمح العذبة ؟!
أتراه نسي أولاد عمه ؟
منذ عدة سنوات ترك أولاد عمه القرية، فذهب اثنان منهم
واشتغلا بمحلج القطن، وفي الصيف الماضي حين مرا على القرية مع سالم اصابهم سعالا
عميقاً كاد ان يخرج من صدرهم. واحسرتاه كيف يفعل القحط في الأجسام . أما بقية الأخوة فقد تفرقوا في المدينة، واشتغل كبير الأخوة حارس عقار في المدينة، واقترب سالم من أبواب المدينة. وهو يسأل نفسه، هل يذهب إلى المحلجة فيلتمس فيها عملا له؟
انه بلاشك سوف يجد فيها عملا فموسم حصاد القطن سيبتدىء بعد قليل . ثمة صوت الآلات، وغبار القطن، ولكن لا، إنه لا يحب حلج القطن،
كيف يستطيع المرء أن يقوم بعمل لا يحبه؟
اين عملية حصاد القمح وغربلته من حلج القطن وندفه؟
ولكن من يدري : فلعله سيضطر إلى الدخول في هذا المصنع مكرهاً إذا ما سدت في وجهه كل سبل العمل. وقبل أن يمضي في الطريق القديمة الموصلة إلى أسواق البلدة توقف هنيهة .
ما الفائدة من الذهاب إلى ذلك السوق؟ هل باستطاعته أن يمشي بين المخازن
دون أن تحدثه نفسه بشراء الحوائج التي اعتاد شراءها فيما مضى؟ ما الفائدة من

قهر النفس؟ ما الفائدة من استرجاع صورة القحط إلى النفس ؟!
شعر بحرارة الشمس وهو واقف يتطلع إلى نوع من العشب لفت انتباهه، ليس في نية الشمس أن تحتجب هذا العام،
ما استترت طوال الشتاء ، وهبت الأرض في الصيف،
وهاهي تسلق الإنسان في سبتمبر.
الشمس والقحط والمطر والخصب، صورتان لا تكاد الواحدة منها تنفصل عن الأخرى في ذات نفسه،
ألا يستطيع الإنسان أن يسير في السوق دون أن يشتري شيئاً، هل يستطيع أن يمشي كالجنود حازماً جاداً، بين أصناف البضائع لا يلتفت إلى اليمين، ولا يلتفت إلى اليسار؟ هذا المال الذي يتحرك في جيبه، هل ينفقه في السوق فيعود صفر اليدين كأرض زارها القحط ؟
مشى سالم في السوق المسقوف بين الدكاكين المتراصة يصدمة الذاهبون
و العائدون، وتطارق سمعه عشرات الأصوات والنداءات. ثمة بضائع من جميع الأنواع، وبائعون مهذار وثرثارون يقتنصون المارة كما تقتنص الأسود فرائسها. كان سالم يسير دون أن يرفع رأسه، واجتاز السوق، ورغبة عنيفة تجول في نفسه :
كيف يتغلب الإنسان على القحط؟
كيف يستعيض خسائره؟
كيف يتغلب على جفاف الطبيعة ورداءة الموسم؟
حث خطاه، فاجتاز السوق كله حتى بلغ دكان في نهاية السوق ذا مدخل واسع عريض، مبنية بالحجارة الصفراء الضخمة .. ورأى حارس الدكان واقفا أمام الباب . قال له سالم :
- هل عندكم قمح ؟
- المخزن الثاني في الجهة اليسرى.

واجتاز سالم المدخل فانتهى إلى باحة واسعة تحيط بها عشرات الغرف من جهاتها الأربع و تربض الخيول في وسطها ...
وفي المخزن الثاني في الجهة اليسرى اقترب سالم من رجل مسن جالس على بساط من القش ومتكيء على كرسي صغير .
- السلام عليكم .
- وعليكم السلام ورحمة الله .
- هل عندكم قمح؟
- نعم يا ابني، تفضل واسترح !
و بعد مشادة طويلة عنيفة حادة حول ثمن القمح . قال سالم :
- أريد بهذه المال (سنابل) من القمح .
وفتح سالم صرته فأخرج منها ثمن البقرتين والحمار ودفعه كله إلى الرجل.
سيحرث الأرض بنفسه،
وسيزرع القمح بنفسه، وسيحصده
بنفسه، سيقوم هو مقام جميع الحيوانات! . لن يعمل في غير أرضه، وسيتحدى كل شيء ؛ نعم سيتحدى الشمس أن تحرق السنابل الصغيرة، والمطر
أن ينحبس عن أرضه، والقحط أن يكون !!

محتوى الكتاب